وارد بدر السالم

شظيةٌ
في مكانٍ حسّاس

انفجار آخر سيارة مفخخة في بغداد

روايـة

خطوط وظلال

للنشــر والتـوزيـع

الأردن، عمّان، جبل الحسين، بناية (٢٠)

تلفون: **5746218 79 962+ - 4651846 6 962+**

email: dar5otot@gmail.com

ص.ب: **11190**، عمّـان **925220** الأردن

شظية في مكان حساس - رواية

وارد بدر السالم - الطبعة الأولى، ٢٠٢١

جميع الحقوق محفوظة ©

تصميم الغلاف والتنسيق الداخلي:

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the Publisher

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

المملكة الأردنية الهامشية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (١٩٣٨/ ٦/ ٢٠٢٠)

٨١٣,٩

بدر، وارد

شظية في مكان حساس / وارد بدر .ـ عمان: خطوط وظلال للنشر والتوزيع ٢٠٢٠

(١٦٨) صفحة

ر.إ.: (١٩٣٨/ ٦/ ٢٠٢٠)

الواصفات: /الروايات العربية//الأدب العربي// العصر الحديث/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الرقم المعياري الدولي: **ISBN: 978-9923-761-57-1**

وارد بدر السالم

شظيةٌ
في مكانٍ حسّاس

انفجار آخر سيارة مفخخة في بغداد

رواية

تذهـب دار خطـوط للنـشر والتوزيـع إلى أمـداء طَموحـةٍ عـبر الانتصـار للنصـوص الإبداعيـة المتجـاوزة، وإيـلاء الفعـل الجـماليّ اهتمامًـا كبـيراً بكونـه فَخًّـا بصريًّـا، ولَـذَّة كامِنـةً لِصِفـات الكتـابِ الـذي سـيوقع القـارئَ في لَـذَّة الصـورةِ و تمثُّلاتهـا المعرفيـة المتحركـة.

نقـارب بـين ثقافـاتٍ مختلفـةٍ مـن خـلال الترجمـة، مؤمنـين بـأن الاختـلاف عافيـة للقـارئ والمبـدع معـا.

خطوط حبر يفيض في كل الحقول .....

(1)

- منذ متى وأمكِ ترقص؟

- منذ ساعة.

- وميس ؟

- نامت قبل قليل.

كان وجه لبنى حزيناً ويؤلمني كثيراً أنه اكتسى بألمٍ مبكر.

(2)

موسيقى الغرفة الصاخبة تشتّت انتباهها على ما حولها كما في كل يوم . ذلك الصخب الذي ينشر معه رائحة نور في الصالة يجعلها قلقة . لا يستقر رأسها على فكرة واحدة ، لذا تقضم بأظافرها من دون أن تشعر، غير أنّ وجودي في البيت يضفي عليها الكثير من الهدوء والطمأنينة فتترك عادة قضم الأظافر وتستكين وتهدأ.

في لحظة الرقص التي كنتُ فيها بدت على عينيها آثار سهر وبقايا بكاء جفّ في مقلتيها ، وثمة خوف يتحرك في عينيها السوداوين لا يمكن لي أن أتجاهله. لكنها بقيتْ - مثل أم صغيرة - تداري اختلاجاتها واضطراباتها بأية طريقة ممكنة. أمومة مبكرة لأنثى صغيرة وزعت اهتماماتها بين طفلتنا ميس ودراستها الشاقة وأمها المضطربة بسلوكها الجنسي غير المنضبط ولعنة الشظية المتحركة فيها.

تحسستُ في جسدها ارتجافة ناعمة لم تستطع إخفاءها عني وأنا أضمها وأدخل معها الى غرفتها الصغيرة المعبّأة بالبوسترات التعليمية الكثيرة.

(3)

لبنى طاقة علمية واعدة وشطارة ذكية أتوسّم فيها مستقبلاً لها ؛ لكنها دخلت معنا في هذه القسوة الشخصية بالرغم منها ، مُدركة حجم الخطر بيننا، فذلك تحاول أن تجمع أشلاء البيت بطريقة طفولية. أو هكذا كانت تتصور وتسعى لأن تكون حياتنا طبيعية . لهذا وعتْ المشكلة الحقيقية وأدركت الشذوذ المخيف الذي يعتري نور، وكان لابد لها أن تتكيف بكل ما فيها من قدرة على التكيّف وتتحمّل النتائج المفاجئة التي لم أكن أدري أنها ستصل الى هذا المنعطف المتعِب.

كنت أحاول امتصاص قلقها في لحظة الموسيقى الصاخبة ، بينما بقيت متماسكة لتبدو طبيعية أمامي. ألمّها بين ذراعيّ وكأنني اقول لها بصوتٍ لا يخرج من حنجرتي: لا تقلقي فالرقص علاجٌ ودواء. دعي أمك ترقص حتى تخرج منها تلك اللعنة.

(4)

أنـا ولبنـى نتبـادل الانفعـالات والتطمينـات والرقابـة أيضـاً ، ونخـشى عـلى الصغـيرة النائمـة ميـس مـن أن تسـتدرك بفطرتهـا حجـم الألم المسـتشري بيننـا الـذي تسـببت بـه شـظية ترقـد بـين فخـذي نـور منـذ سـتة أشـهر.

(5)

الصـوت السـعيد لـ عبدالحليـم حافـظ مـن أحـد أفلامـه الرومانسـية يصـل الى الصالـة ويتكـرر معـه صـوت الشـجن القديـم . يـدوّر المـاضي بطريقـة تطريبيـة. لعـلّي الآن في سُـكرة القيلولـة ممـدداً عـلى أريكـة لبنـى أرى فسـتان سـعاد حسـني يطـير في الهـواء فتتلقفـه فراشـات النهـار وأصابـع الكومبـارس ؛ وربمـا أكاد أسـمع لهـاث « نـور» وهـي تـدور في غرفتهـا راقصـةً تمـلأ المـكان برائحـة جسـدها المتبخـر في هـذه اللحظـة، وأن أتخيلهـا الآن عاريـة يتفـرّق جسـدها ويلتـم مـع موسـيقى فارقتُهـا عشريـن سـنة ، أو بثيـابٍ خفيفـة تلوي بجسـدها في كل اتجـاه وتفتـح سـاقيها كالمجنونـة مثـل «نجـوى فـؤاد» بجسـدها الناعـم والعـرق يتصبـب مـن جسـدها المجـروح، وعيناهـا تبكيـان وروحهـا تتبلّـد بـالألم عندمـا تأخـذ نفسـاً قصـيراً.

(6)

تغـيّر الطـرب الراقـص الى أم كلثـوم في « بعيـد عنـك حيـاتي عـذاب» الموجعـة وهـي تقيـس المسـافات المطلوبـة لحركـة قدميهـا وسـاقيها ثـم تتطافـر مـع وركيهـا الممتلئـين فيتطايـر شـعرها عـلى ظهرهـا ، ثـم تسـتكين قليـلاً مـع الموسـيقى التـي تهـدأ ، لترتعـش مؤخرتهـا كرفيـف متواتـر لأجنحـة طيـور أفريقيـة صغـيرة وهـي تقـف أمـام وردة متفتحـة لتمتـص رحيقهـا.

(7)

تركـتُ نفـسي عـلى الأريكـة بصـداع يحـرث رأسي منـذ أيـام لم أسـتطع السـيطرة عليـه كثـيراً. وبقيـت أنصـت لهـذه الموسـيقى التـي أعادتنـي الى الـوراء سـنواتٍ بعيـدة. أسـتدعي فيهـا صـوراً لراقصـاتٍ عربيـات بأجسـادهنّ البضّـة الفاتنـة ، عندمـا كـنّ يلهـبنَ مخيلـة أجيـال كاملـة عـبر شاشـات التلفزيـون آنـذاك . وكأنمـا «نـور» مكلّفـة بـدور أن تكـون راقصـة لبعـض الوقـت مـن دون أن يراهـا أحـد.. تلهبنـي فقـط. وتدمـرني معهـا أيضـاً في رقصـة الشـظية التـي اسـتباحت جـزءاً مـن جسـدها ، فقضت عـلى روحهـا الطيبـة التـي اكتـوت بنـيران كثـيرة تجمعـت عـلى شـكل شـظية بحجـم رأس الدبـوس، لتُبقيهـا عـلى قيـد المعانـاة في منطقـة مخفيـة فيهـا.

نـور تعيـد الحيـاة الى زمـن الرقـص السـعيد في غرفتهـا وقتـاً

طويلاً لكي تتخلص من الألم والشبق والمعاناة الغريبة التي لم تحدث لامرأة غيرها.

(8)

الرقص فرحُ الجسد أم ألمُهُ ؟

كنتُ أتساءل وأنا أصغي لتبدّل الموسيقى والأغنيات القديمة لأم كلثوم وعبدالحليم حافظ وسعاد حسني ، كما لو أن نور تبدّل جسدها مع هذه الأطياف بإيقاعاتها المختلفة في أغنيات زمن مضى ، وقد تحوّلت الى نسيج راقص وإيقاعات متناوبة يفترعها طبلٌ صاخب يدقُّ في خصرها ونقرٌ بين فخذيها وأصابع تضغط على روحي لما أتخيّلها ترقص في غرفتها وحيدة لتنتزع حشرة الحديد الناعمة لاهثة ، دائخة الرأس ، متكسرة الروح ، وهي تصارع الشظية المتحركة في مكانها الحسّاس لعلها تنزلق فجأةً وينتهي الألم الغريب الذي اجتاحها منذ ستة أشهر.

«كلُّ شيءٍ يرتجُّ حينَ يرتعشُ النور»

(غاستون باشلار)

{ كان جسـدها اجتماعيـاً ومقدسـاً لأنـه جسـد سري،والمـرأة أكـثر مـن الرجـل تحافـظ عـلى هـذا الـسر، لكنـه تبعـثر في الانفجـار وانسـلخ عنـه الحيـاء قـسراً في الفحوصـات والمعالجـات والإسـعافات والأدويـة والخياطـة والترميـم والترقيـع ،فأزالـوا عنـه الحشـمة كثـيراً أو قليـلاً ، ففقـد اسـتقلاليته ليمـوت مؤقتـاً، لهـذا تناضـل المـدام ليبقـى جسـدها حيـاً مهـما كان الثمـن لأنها امـرأة تعـي حالتهـا بطريقتهـا الاجتماعيـة لكنهـا لا تعـي فداحة الأضرار التـي تَسـبّب بهـا جسـدها المشـاع وهـذه نصـف المشـكلة يـا أخـي..}

« من الرواية»

الفصل الأول
عاريان كتمثالين

(1)

فاجأتني نور برغبتها أنْ نمارسَ الجنسَ عندما خرجتْ من الحمّام ملفوفة الجسد بمنشفةٍ زرقاء، بينما كنتُ أتطلّعُ من النافذة لأسكتَ نباحَ الكلب في الحديقة الخلفية من البيت بعودةِ الكهرباء من جديد بعدَ انقطاعها منذ أكثر من ثلاثِ ساعات.

وقفتْ أمامي ورائحةُ الحمّام فيها تفوحُ بشامبو التفاح والياسمين وصوابين زيتية ذات عطور متداخلة ومهيّجة ربما لم أشمّها من قبل.

قالت شيئاً أشبه بالهمس منه الى الكلام ؛ بلمعة عينين منفتحتين على أضواء بارقة مختضة كثيراً لم آلفها منذ زمن طويل - كأنهما عينا ديك- ببريقهما الساطع، وبقيت شفتاها ترتعشان قليلا كورقتي وردة ناضجتين ترددان باشتهاء «سسسكس»!

عقـدت الدهشـةُ لسـاني حينـما اختلطـت المفـردةُ الغريبـة عـلى مسـامعي، خارجـة مـن شـفتينِ ليّنتـين طريتـين بعـد الحـمّام ، تمطّهـا مطّـاً بطريقـة بطيئـة ومغريـة ،حاملـة معهـا دعـوة شـبقية مثـيرة كـما لم تحـدث سـابقاً، في الوقـت الـذي بقيـتُ فيـه مسـتغرقاً بدهشـة معقـودة بفـرح اسـتثنائي لم أسـتطع إخفـاءه كثـيراً أشـعرني بعـودة نـور الى الحيـاة لأنهـا تجـاوزت محنـة الشـظايا التـي كادتْ تقتلهـا وعـادتْ الى الحيـاة بطريقـةٍ رائعـة.

لم أكنْ مهيأً لممارسة الحب.

بقيـتُ تائهـاً في عينيهـا الوامضتـين وشـفتيها الرقيقتـين وقامتهـا الفارعـة ؛ ويدلّنـي عـلى نقـرتي إبطيهـا شـميم طحـين الخزامـى وصوابـين الليمـون والتفـاح والياسـمين المنتـشرة في جسـدها، وجـمال حضورهـا المغـري بعـد خروجهـا مـن الحـمّام كحوريـةٌ مولـودةٌ في زمـنٍ جديـد لا أتوقعـه . وكانـت أنفاسـها قريبـة مـن أنفـاسي ، مأخـوذاً بمفاجـأة لم تخطـر عـلى بـالي وأنـا أنظـر الى عينـي الديـك اللامعتـين في وجهها ؛ تختلـط فيهـما ألـوان غريبـة تتقاسـم ذلـك اللمعـان المثـير بطريقـة لم أعهدهـا مـن قبـل. هـما عينـا أنثـى لا تخفـي رغبتهـا وشـغفها الجديديـن الخارجـين الى الحيـاة تـواً. فاسـتولى عـليّ حضورهـا الفائـق بشـكلٍ مبـاشر، وبـات مـن الواضـح مـن أنهـا تخطّـت عقبـات جسـدها تقريبـاً ودعتنـي إليـه بحـب، لكننـا حتـى اللحظـة التـي فتحتهـا نـور لدخـول جسـدها لم نكـن قـد اتفقنـا بعـد عـلى إشـارات سريـة سريعـة كنـا نلجـأ إليهـا سـابقاً ؛ قبـل موقِعـة الشـظايا ؛ بعيـداً عـن انتبـاه لبنـى التـي كـبرت عـلى طفولتهـا وهـي تواصـل

دراستها الجامعية بشطارة، كما كان يحدث قبل الشظايا والحروق التي شوّهت جسد نور من الأسفل قليلاً.

لكن هذا ما حدث بعد خروجها من الحمّام ملفوفة الجسد بمنشفة زرقاء بقامتها الطويلة كفراشةٍ زرقاء خرجت من الغرق قبل قليل بعيني ديك تستغرقهما شهوةٌ لا حدود لها.

(2)

نظرتُ إليها مأخوذاً بهذه الشهوة المؤجلة منذ إصابتها قبل ستة أشهر تقريباً ، وظلت عيناها البارقتان ترمقانني برغبة محمومة لا يمكن أن أخطِئها وقد أسعدتني كثيراً تلك النظرة الجديدة التي توسعت في ذلك البريق، وأعادت بي روحَ الجمال الذي كاد يخفتُ في قلبها، فنور تماثلت الى الشفاء وعادت روحها النقية تملأ البيت فرحاً وفتنةً ، بجسد يلتحم من جديد ويتماسك، بالرغم من بقعِ الحروق وآثارِ الشظايا الباقية عليه والتي لا يراها أحد غيري، سوى ما بقي في خديها وعنقها من جروح صغيرة ولطخات خفيفة لحروق يمكن أن تخفيها بالماكياج وتحتال عليها بسهولة.

(3)

كنتُ عائداً من السوق قبل قليل ولم يخطر على بالي أن نور قد توقدت فيها من جديد جذوة الجسد وتولدت لديها رغبة جنسية في هذا الوقت، بعد معاناتها الطويلة مع الجروح التي تركتها الشظايا وكِسَر الزجاج وشرائح الحصى الناعم عندما شرخت جسدها البض وبقيت الندوب الصغيرة والحروق غير العميقة مخفية تحت ثيابها. لكنها الآن تعود أجمل نور وأبهى زوجة وأرق حبيبة تفيض بالعطر والجمال والأنوثة كما كنت أعرفها قبل عشرين عاماً.

ولم أكن لأخفي سعادتي لأنها تتعافى الآن وتتجاوز محنة الأشهر الستة الثقيلة التي امتثلتْ فيها الى مراجعات جراحية طبية كثيرة في المستشفيات العامة والخاصة ، بينما كنت أقضي معها كل ذلك الوقت حزيناً ومنكسراً وخائفاً من نتائج الإصابة التي أحدثتها سيارة مفخخة قبل ستة أشهر، عندما كانت تتبضع من سوق المدينة القريب، وربما كانت تلك آخر سيارة مفخخة في بغداد اقتصّت من زوجتي وبعدها لم نسمع أخباراً عن انفجار مفخخة لاسيما بعد الأمن الذي استتب في العاصمة على نحوٍ واضح.

(4)

توجهنا الى غرفة النوم وكانت منفرجة الساقين قليلاً ؛ كأنها حامل؛ وهو أمرٌ كنت أنتبه إليه منذ خروجها من المستشفى وانتهائها من المراجعات الطبية، بعدما تمكنتْ من أن تثق بجسدها . تنهض ، وتمشي ، وتستحم ، وتمارس الحياة الطبيعية في البيت. غير أنّ انفراج ساقيها هو ما ظل يلفت نظري بعد زوال المحنة كما لو أنها تخفي شيئاً بين فخذيها. وكنتُ أعرف ذلك المخفي الطائش الدقيق الذي حوّل نور الى امرأة ثانية كما لو أنها تحمل الحرب كلها في لحمة غير مرئية بحجم رأس الإصبع الصغير.

(5)

جلستْ على ركبتيّ كمن تريد إخباري بشيء ما، متطلعة الى وجهي بعينين صاعقتين تعكسان أطياف رغبة جامحة لا يمكن إغفالها، ويداها تطوقان عنقي وعطرُ حمّام باذخ وغريب يتموج بيني وبينها لم يسبق لي أن شممته من قبل، هو عطرٌ معتق لستة أشهر في أنثى كانت غائبة عن جسدها كل تلك الفترة الحرجة كما أعتقد.

قالت لتكشف لي فراغ اللحظة التي تحمل معها حميمية صريحة بيننا:

- ميس نامت مع لبنى.

لم يكـن الوقـت متأخـراً بعـد وكانـت المروحـة تبـدد الضـوء بريشـاتها الـدوّارة وتنـشره خفيفـاً بيننـا، فتتخاطـف ظلالهـا عـلى وجههـا المتـورد فتتحـرك عيناهـا الجميلتـان مفتوحتـين بـين رمـوشٍ طويلـة بالرغبـة ذاتهـا.

كانت آثار شظايا صغيرة

وحروق طفيفة على خديها وعنقها

ما تزال واضحة.

الحكّة

(1)

نـور عـادت الى جمالهـا أخـيراً لتفتـح قلبـي كثـيراً وتـزرع الأمـل في روح البيـت الـذي كان مصابـاً بكآبـة غيابهـا الطويـل.

أتطلـعُ إليهـا كأننـي أراهـا للمـرة الأولى منبثقـة مـن عاصفـة سـوداء باتـت قديمـة.

بـدأتُ ألمسـها مـتردداً فتمـر أصابعـي مرتعشـة عـلى لحمهـا الأبيـض متعـثرة ومتوجسـة.

أنظر الى شفتيها وأسألها:

- كيف وضعكِ الآن ؟

- تمام .

كانـت شـفتاها برعمـين يشـقان طريقهـما بقـوة الى جـمالٍ سـاحرٍ جديـد:

- بقيت شظية واحدة صغيرة ؟

- تدغدغني في المكان ..و ..

- بقية جروحك شفيت !

- شـفيت إن شـاء اللـه .. إلا الشـظية الصغـيرة التـي بقيـت تحكّنـي.

- لا بأس .. ستزول مع الوقت.

ضممتها بحب وأنا أقول :

- الآن عدتِ نور كما أنت قبل الانفجار.

شـممتُ في رقبتهـا رائحـةً مثـيرةً وغريبـة حينـما دنـتْ بوجههـا منـي وشـفتاها تلتويـان كموجتـين يحركهـما نسـيمٌ ناضـج، وينسـلُّ طـرف لسـانها الأحمـر كلسـان صـل صغـير ثـم تبتلعـه بـين شـفتيها ببـطء. فيـما كان طحـين الخزامـى تحـت إبطهـا ينتـشر بيننـا مثـيراً شـهوتي الى حـد كبـير.

لمسـتُ مـن جديـد أثـر شـظية عـلى رقبتهـا البيضـاء وكانـت خطـاً ورديـا لا يُـرى كثـيراً ومـرت أصابعـي عـلى حـروق طائشـة ، فكانـت بضّـة كجسـدها الناعـم سـوى أنهـا بلـون القهـوة المحترقـة.

طبعـتْ عـلى شـفتيّ قبلـة صغـيرة وتبعتهـا بأخـرى ملصِقـة جسـدها المعطـر بجسـدي ضاغطـة عليـه بطريقـة شـهوانية لم أتوقعهـا ؛ وهـي رغبـة منـاورِة فيهـا جـرأة وظرافـة لم أعتدهـا مـن قبـل.

تـرددتُ قليـلاً خشـية أن تنفتـح جروحهـا الصغـيرة المنتـشرة في جسـدها وتنقـذف شـظايا مخفيـة لم تلتقطهـا تصاويـر الأشـعة ولا أجهـزة السـونار بعـد.

(2)

« خائفة»

تمتمتْ وكانت ترتعش ولم أفهم ماذا تعنيه كلمتها الضعيفة كما لو تغيرت الرغبة التي فاجأتني بها قبل قليل.

بقيتُ أنظر الى وجهها الجميل الذي تناوبت عليه آثار الرعب الماضي وهي تخرج من الركام والعصف المفاجئ والتراب والدخان والأشلاء والبارود . لكنني حاولتُ أن لا أعيد تلك اللحظة المؤلمة لنا التي طوتها ستة أشهر صعبة وحرجة ، فواصلت التحديق في عينيها منتظراً فاصلة الشوق المدفونة فيهما بشوقٍ أكبر لجسدها المعبّأ بالحب وعطر الحمّام الذي يستعيد نعومته الفذة.

كنتُ أحاول ترتيب فكرة اللقاء الحميمي غير المتوقع في ذهني بطريقة تعرف فيها أنني لا أريد إيقاظ جروحها المخيّطَة في جسدها وحروقها الشاحبة هنا وهناك، لكنها بادرت وضمّت وجهي الى صدرها بحب ، كما لو تمنعني من الاعتراض ، فغُصتُ في لحمها الأبيض ، مغموراً برائحة متداخلة ، هي مزيج من العطور البرية الرطبة وبقايا الضمادات الطبية وانصهار الصوابين العطرية والبودرا الطحينية الفاغمة في ذلك الشق السحري الذي أحبه كثيراً، وأذوب حين أتنفسه فامتلكها في لحظات قد تقصر أو تطول في سعادة زوجية تعرفها نور.

استنشقت في صدرها العريض غابة من مطرٍ وترابٍ وبارودٍ

وطـينٍ وزهـرٍ خريفـي متسـاقط.

كانـت منـدّاة ومبللـة ورائحـة الحـمّام فيهـا تشـير الى عريهـا المفتـوح ، في الوقـت الـذي أخـذ جسـدها المهيّـأ يضـخ الكثـير مـن العبـير المعتّـق الـذي افتقدتـه طويـلاً. روائـح مختلطـة ومتداخلـة ومتناقضـة شـكّلت رائحـة جسـد ثـري بالجـمال والشـهوة. هـو جسـد نـور العائـدة مـن الضـمادات وروائـح الديتـول والمراهـم الصفـراء.

- أريدكَ.

كانـت خفيفـة بجسـدها وهـي تخطـو الى بـاب الغرفـة بطولهـا الفـارع المغطـى بالمنشـفة الزرقـاء حينـما أدارت المفتـاح في ثقب البـاب بهـدوء، فانزلقـت المنشـفة مـن عـلى كتفيهـا لتكشـف النعومـة البيضـاء عـلى ظهرهـا المكتنـز وشـعرها المسترسـل الـذي يشـعّ تحـت إنـارة الغرفـة وبـدت أقـلّ مـن عمرهـا الأربعينـي ؛ كزهـرة صيفيـة تريـد أن تتفتـح وترتـوي مـن جديـد بأنوثـة طافحـة عـلى جسـدها العائـد مـن الغيـاب، بعـد أقـسى سـتة أشـهر تنقلـتْ فيهـا بـين المستشـفيات الحكوميـة والأهليـة والعيـادات الخاصـة للجراحـين في محـاولات مضنيـة لترميـم جسـدها.

(3)

تركـت المنشـفة تنزلـق كليـا عـن جسـدها قبـل أن تمـس الـزر الى جانـب نقطـة السريـر الكهربائيـة ، فحلّـت عتمـة عميقـة

معطـرة بـ نـور الحبيبـة التـي عـادت الى حياتنـا المشـتركة بطريقـة بارعـة بالرغـم مـن تلـك المعانـاة القاسـية.

- خذني.

تلمسـتُ طريقـي بالشـم العميـق كـما لـو أريـد أن أسـتخرج رائحـة قرويـة قديمـة مدفونـة في جسـدها عاشـت معـي عشرين عامـاً. فألمسـها بحـذر لـكي لا تسـتيقظ الجـروح وأواصـل شـغفي بالقبـلات المتلاحقـة في كل مـكان وكأننـي أتـذوق جوريّـة فتيـة نبتـت عـلى السريـر بتلـك الرائحـة العذبـة وإن خالطتْهـا روائـح أخرى.

كانـت نـور تـئن أنينـاً خفيفـاً متواصـلاً لم ينقطـع عـلى مـدار الظـلام والسريـر الغاطـس بنـا ؛ كأنّمـا تلـك الجوريـة تريـد أن تسـتفيق بعطرهـا المحبـوس وتنعتـق مـن أسـلاك شـائكة طوّقتهـا زمنـاً غـير قصـير، لذلـك احتدمـتْ معـي بطريقـة شـوق عنيفـة أشـعرتني برغبـة محمومـة ، كانـت مخفيـة في جسـدي المتنمّـل وهـو يتحـرر الآن مـن الكبـت الطويـل، حتـى ذابـت شـفتاها بشـفتيّ واجتاحنـي صدرهـا المنتصـب بحلمتيـه الفذتـين الحيّتـين كإصبعـين رقيقـين لجنـين يولـد الآن.

(4)

كنـتُ حـذراً وخائفـاً مـن جسـدها المجـروح. لكنهـا اسـتولت عـلي بطريقـة سـاحرة وانسـفحت أنوثتهـا تحـت عتمـة الغرفـة المطبقـة علينـا بأنـين يتقطـع ولهـاث يتصـادى ويندغـم مـع

شـوقها الـذي لم تخفـهِ ، فيظهـر صـوت شـهواني فظيع لم أسـتطع إلا أن آخـذ نـور بأقـصى درجـات الحـب كأنهـا عـروس ليلتـي الأولى، راويـاً عطـشي الطويـل وأنـا أغـرق في نبعهـا مـن جديـد بحـب واشـتهاء زوجـي افتقدتـه فعـلاً. متهيئـاً لغـرق جديـد في نهـر نـور الـذي بـدأ يجـري في عروقـي برائحـة قريـة قديمـة.

لم أفـقْ بعـد مـن هـذا الشـوق المتناسـل في اللهـاث والأنـين والشـبق العـارم ، فغـادرت الحـذر والخـوف والـتردد وهـي تتلـوى عـلى جسـدي بطريقـة تختلـف عـن حميمياتنـا السـابقة ؛ قبـل موقعـة الشـظايا؛ بصـوتٍ غريـب فيـه لوعـة الغيـاب وانتصـار الجسـد عـلى الشـظايا ، فانفجـرتُ فيها بطريقة سـاحرة ومذهلـة ومجنونـة، كـما انفجـرتْ هـي بطريقـة غـير معهـودة في لقـاءات حميمـة سـابقة كهـذه ؛ بـصراخ مكبـوت لم يخـرج مـن الغرفـة المظلمـة كثـيراً؛ متعرقـة تفـوح منهـا رائحـة أنثـى لم أعهدهـا فيهـا ؛ مزيـج مـن شـهوة جبـارة وعصـارة نباتـات بريـة ورغـوة شـامبو التفـاح وفتيـت بـودرا جـوز الهنـد والجـوري والدريـم آنـدر والترواماتـش وضـمادات معفـرة باليـود ورائحـة التفـاح ونثـار صوابـين زيتيـة خاصـة لم أسـتطع تمييزهـا بشـكل دقيـق ، حينـما نسـيت جروحهـا المغلقـة وحروقهـا الخفيفـة في جسـدها الأبيـض الـذي يثـير شـهيتي الآن كثـيراً.

(5)

أنّـتْ أول الأمـر أنـاتٍ خفيفـة كأنهـا متضايقـة وحاولـت أن تدفعنـي حينـما انحـشرتُ بـين فخذيهـا، لكننـي كنـت منهمـكاً

بهـا دافعـاً روحـي فيهـا باشـتياق ولهفـة حتـى تحـول أنينهـا الى صراخ قصـير تفاقـم قليـلاً ولأكـثر مـن مـرة ؛ كأنّ شـيئاً انبثـق من بـين فخذيهـا ؛ كأنّ الشـظية الوحيـدة المتبقيـة قـد تحركـت مـن موضعهـا أو طفـرت أثنـاء الرغبـة المسـتعرة بيننـا، لكنهـا بـترت صرخاتهـا المتتاليـة بنَفَـسٍ عميـق وتنهيـدة أعمـق ، أشـعرتني أنهـا تطفـو عـلى نشـوة اسـتثنائية وخـدر لذيـذ اجتـاح أيضـاً جسـدي ومفاصـلي وجعلنـي أغفـو قليـلا، ممـدداً عـلى فـراشي، عاريـاً كطفـل، وهـواء خفيـف يمـر بيننـا حتـى انتظمـت أنفاسي اللاهثـة وهـدأتُ كليـاً وذابـت أنّاتهـا وصرخاتهـا المكبوتـة كأنّ اللحظـة غفـتْ عـلى جسـدينا ونامـت في حلـم جديـد.

خيط دم باهت

(1)

ضغطتُ الزر الآخر الذي كان تحت رأس سريري فانفتح الضوء الفضي ساطعاً وبارقاً كالنهار المشمس، لأتفقد نور التي عادت من الغياب وقسوة الشظايا وحررتْ رغبات جسدها أخيراً وخرجت من عزلته الطويلة.

بقيت الى جانبي ممددة ، عارية كمانيكانة حلوة معروضة بطريقة نائمة، وما تزال رائحة إبطها المتعرق منتشرة في غرفة النوم وصدرها الأبيض منتفخ قليلاً ، وحلمتاها بلون القهوة المحمرّة منتصبتان، وعيناها نائمتان بعمق تنطبق عليهما رموش سوداء طويلة وبطنها المستوية مع جسدها تتنفس بهدوء. وكانت آثار الشظايا الكثيرة والحروق قد تحولت الى جروح مضمومة عابرة في جسدها تاركة فيها بقعاً وردية متفرقة أو بلون القهوة المحمّصة كثيراً.

كان وجهها سعيداً حينما أفقتُ بنشاطٍ خفيف بقصد الذهاب الى الحمّام ، وطيف ابتسامة رقيقة ما يزال على شفتيها الممتلئتين لمحت فيهما ما يشبه الأثر غير أنني لمحت تحت الضوء الساطع خيط دم رفيعاً، كان قد تسلل من بين فخذيها والتصق بالفراش تاركاً أثراً باهتاً كأنّ الفراش امتص لونه.

انتبهت إليه وأنا أتأمل عريها الناضج ، متحفظاً من أن

تـراني ابنتـي لبنـى بهـذه الطريقـة العاريـة لـو كانـت مسـتيقظة تذاكـر دروسـها. لذلـك ارتديـت الجـزء الأسـفل مـن البيجامـة عـلى عجالـة شـاعراً بسـعادة صغـيرة مـن أن نـور عـادت لطبيعتهـا السـابقة وتجـاوزتْ إربـاكات أشـهر الشـظايا وجراحها الصغـيرة وحروقهـا المتوزعـة عـلى جسـدها.

(2)

قبل أن أفتح باب الغرفة همست:

- لا تتركني.

اعتقـدت أنّ اللـذة مـا تـزال تـسري فيهـا بطيـفِ يقظـة جنـسي مـا يـزال يدغـدغ منامهـا وتنغمـر فيـه.

وقبل أن أدير المفتاح في ثقب الباب نادت بخفوت :

- لا تخرج .

غفـوة لذيـذة تترنـق بـين أجفانهـا تجعلهـا بـين الصحـو والغيبوبـة الخفيفـة جعلتنـي أتطلـع إليهـا بحـب ؛ الى المـلاك العـاري الـذي كانـت فيـه في تلـك اللحظـة.

- ما زلتُ خائفة.. الشظية تثيرني.

تحركـتْ رموشـها وفتحـت عينـي الديـك اللامعتـين وتوسـعت ابتسـامة جديـدة في وجههـا وأشـارت بيدهـا الى أن أعـود ، فجلسـتُ الى جانبهـا سـاحباً الشرشـف عـلى جسـدها أغطـي

عريها الأبيض الناعم ، وأخفي شظايا القهوة المحمصة التي توشم جسدها ،مثلما أخفي خيط الدم الرفيع الذي بدا لي كخيط بكارة انفجرت قبل قليل وذابت على الوسادة.

- أريد..

ضحكتُ وأنا أمرر أصابعي في شعرها المبعثر وأمسح عرق وجهها.

- تعالَ .. أحبك.

عاد الكلبُ ينبح في الحديقة الخلفية كأنه يطارد قطة في الحديقة وكنت أسمع حركته المتسارعة حتى وقف أخيراً خلف النافذة المغطاة بستارة زرقاء ثقيلة يتلصص علينا.

سحبتني من يدي وأغمضتْ عينيها فوجدتُ رموشها المتوازية كسعفتين صغيرتين منطبقتين على بعضهما، وحينما انحنيت لأقبّلها انغمرتُ برائحة جسدها الغريب الذي لم أشمّه من قبل وعندما وضعتُ شفتيّ على شفتيها سحبتني برفق وأركنت جسدي على جسدها حينما فتحت ساقيها لأتكور بينهما، وتفننت بتقبيلي والتهام شفتي ولساني بطريقة نادرة في علاقتنا الشخصية ، ولهاث يخالطه أنين ضعيف يدعوني الى جسدها من جديد وما يزال الضوء الثلجي يكشفنا.

(3)

فاجأتني تلك الرغبة الحميمية الثانية.

لم أتوقع أن تكون بهذه الجرأة وبهذا الوقت القصير وبرغبة تكاد توازي الرغبة الأولى في السخونة واللهفة؛ فخطف بي شعور سريع من أنها لا تعي حالتها الآن كأنها في غفوةٍ يَقِظة ومسترسلة مع الحميمية التي كانت فيها معي قبل وقت قصير بعد إن افتقدتْها فصولاً متتالية.

اختلطت في فمها الحروف وهي تدعوني بنعاسٍ بدأ يتفتح قليلاً مثل مصباح تدخله الطاقة بالتدريج حتى يتوهج، وكنت في حالةٍ مرتبكة .غير قادر على أن أكون غيرها في وقتِ قصير أحتاج معه الى وقتٍ مضاف يماثله في أقل تقدير، إذ يصعب انتصابي وتهيئة عقلي وجسدي معاً لأكون في لحظةٍ حميمية مشتركة ثانية.

لم تدعني نور رهين لحظتي المرتبكة غير المهيأة للممارسة ، فالنساء يدركن هذا بالمعاشرة الطويلة ويتداركنَ في وقت الشهوة الملحّة إحباطات الرجل المتوقعة؛ فانقلبت علي بليونة وجسدها البض يتعرق ويسحقني ويزداد رائحة وضراوة أيضاً؛ بشفتين نهمتين ولسان رطب تصلّب قليلاً وهو يدخل بين شفتي وصدر ينبعج كإسفنجة مبللة أثقلتها المياه ، ثم يستوي بنتوءَيه الواقفين المحمرّين؛ أحدهما يستقر في فمي ويحوّلني الى رضيع عطشان، والآخر ينحشر بين إبهامي وسبّابتي فتخرج منها أكثر من آهةٍ معطرة بالهيل والبارود معاً ، ويتعالى أنين شهواني فريد

جعلها تسحب بيجامتي الى منتصفها متلهفة ، ثم تنسحب زاحفة كالأفعى وتدفن رأسها بين فخذيّ بشكل غريب لم تمارسه من قبلُ معي؛ وبلُ لسانها وشفتيها يجتاحني من أسفل حتى صعد الى رأسي ضباب ثقيل عنيد امتثلت له بخفة واستسلام ، شاعراً بخدر كحولي تسرب من بين فخذيّ الى رأسي ثم انتشر في جسدي المختض تحت لسانها وشفتيها اللتين تحولتا الى سوطين من نار، وكنت أنزلق تحتها بسهولة، فاستعادني الانتصاب النسبي الى ذاكرتي الجنسية القديمة الى حد جيد وأنا منهمك في لحظة الشوق الثانية الى حد نسيت فيه كل شيء ، منزاحاً من شفتيها ومنقلباً على جسدها الذي تمدد بطوله الفارع ، وكان انتصابي ناعماً ومبللاً بلُعابها عندما أولجته على مهلٍ في شقّها الفائض بالشهوة فامتصّني بسهولة ، وكانت نور التي تئن بلا انقطاع ورائحة الهيل والبارود تطفح بين شفتيها؛ مهيأة للصراخ أو البكاء عندما ضمتني بقوة ورفعت ساقيها كالمقص المفتوح مرددة بخفوت :

- خذني أكثر.. اقتل الشظية.

أخذتها أكثر مدفوعاً برغبة نارية مع صرختها الطويلة التي هزتنا معاً في عصفٍ شبقي خيالي ارتعشتْ فيه كثيراً وهمهمتْ كثيراً وطارت كلها تحتي بشكل عجائبي وتفتت جسدها البض في جسدي حتى هدأتْ مع نهايات ارتعاشاتها الكثيرة ، كأنّ شيئاً انطفأ بين فخذيها لا في جسدها كله.

كنتُ ألهث متعرقاً وأشعر بأنني أُفرغتُ من داخلي في

هـذه السـاعة العجيبـة التـي عـاد فيهـا جسـد نـور الى الفـراش بشـهوة نـادرة لم تحـدث طـوال عشريـن سـنة زوجيـة.

(4)

عدنـا الى الاسـترخاء ثانيـة بعدمـا فككـتُ جسـدي الدبـق عـن جسـدها المصهـور بالعـرق والـذي بقـي يسـيل برائحـة أنثـى محمومـة ومعتّقـة ، وكان الضـوء لمـا يـزل يكشـف عرينـا المستسـلم لخفـوت القبـس حتـى خفـتَ وبقـي رأسـانا خاليـين إلا مـن طنـين بسـيط ، عاريـين كتمثالـين، ورائحـة عـرق زوجتـي المنتـشرة في الغرفـة أكـثر مـما يجـب كرائحـة ديتـول، وكان خيـط دم يتسـلل مـن بـين فخذيهـا لزجـاً وكانـت لـه رائحـة تفـاح قديـم.

زوجتي شظيةٌ جارحة

(1)

لم أغفُ تماماً كما يبدو.

بقيتُ بين الصحو والحلم واليقظة القلقة أعيد تفاصيل الليل الحميمة.

استسلمتْ نور لنوم عميق بشخير خفيف متقطع وبقيتْ رائحة أنثى مشبّعة بالشامبو والديتول والعرق تطوف في الغرفة بين يقظتي ونعاسي، مستعيداً وقائع الليل بحذر ومن دون تأويلات خارجة عن نطاق أنها زوجتي التي تعافت وتركت على الفراش رائحة تفاح قديم ، امتزج باليود والديتول والمعطّرات الطبية ؛ فأراها من جديد وقد عادت جميلة بعد تلك المَوْقِعة التي حفرت جسدها بالشظايا وكِسَر الحصى المتطاير والأخشاب وشرائح الزجاج ، في واقعة آخر مفخخة انفجرت في بغداد قبل أشهر غير بعيدة ، وطال بها العلاج لترميم جسدها من الحروق وحُفَر الشظايا.

(2)

عنـد أول الصبـاح صحـوتُ عـلى حفيـف اسـتيقاظها أو تنهداتهـا أو صوتهـا الحـالم.

لم أكـن نائمـاً كليـاً عـلى مـا يبـدو ولم أغـفُ عـلى مـا أظـن، بـل مضيـتُ في لـذة الليـل أسـتعيدها بنشـوة وهـي تتمـوج بإشراقـاتٍ جديـدة سـيكتنفها الغمـوض كثـيراً وأنـا مسـتغرق بلـذة مزدوجـة في جسـدها المنسـوج بالبيـاض والشـهوة وبصـمات الخيـوط الطبيـة وشـطحات القهـوة المحمّصـة عليـه.

إستغرقني جمالها الخارج من الجروح.

فاحـت رائحـة الهيـل مـن جديـد خفيفـة كأنهـا نعـاس يرافـق نـور في اسـتلقائها العـذب، جالبـةً معهـا الغيـاب الطويـل بزينـة ثانيـة، فجـدّد روحـي، وإن كان جسـدها جريحـاً لكنـه أضفـى عليهـا سـحنة أخـرى وجدتهـا أكـثر روعـة وانسـجاماً. فبقيـت ممـدداً عـلى فـراشي تتناوبنـي رؤى جديـدة وسـعادة ليسـت افتراضيـة في الأحـوال كلهـا، متأمـلاً كل شيء ، متذكـراً عـلى نحـوٍ مـا المـاضي القريـب وقـرف الشـهور الطويلـة التـي غابـت فيهـا نـور موزعـة جسـدها عـلى الجراحـين والمضمديـن الفضوليـين.

(3)

في الحقيقـة أيقظتنـي آهاتهـا المتلاحقـة ومـا يشـبه الـصراخ الخفيـف المسـتنجِد بي وقـد ذكـرتْ اسـمي مرتـين بهمـس؛

فخلتها تحلم بصوت مسموع بعد نومٍ عميق، أو داهمها حلم السيارة المفخخة التي حاولتْ اغتيالها ذات نهار، وكان الضوء الفضي قد نسيناه مفتوحاً منذ الليل ونحن في اللقاء الساخن الثاني فبقي كل شيء واضحاً تحت الضوء الثلجي الساطع.

كانت جميلة وهي نائمة وشفتاها تتحركان قليلاً كمن تحاور شيئاً افتقدتْهُ طويلاً.

نظرتُ إليها وأنا أنهض عارياً.

ألقيتُ نظرةً على بعثرتنا المشتركة.

ثمة سحر جديد في عافية الغزالة التي تخلصت من صيد الشظايا الحارقة.

كانت حمّالة ثدييها مرمية خارج السرير كصدر مقلوب ولباسها الداخلي الكحلي على مقربة منه منبسطاً مثل مقص مفتوح الطرفين، وكان خيط الدم الباهت مفتتاً كبقعة بُن على الفراش.

(4)

لبستُ بيجامتي ودخلت الحمّام وتركت الضوء ينير الغرفة وينير عريها الأبيض وأخذت دوشاً بارداً لأستعيد شيئاً من نشاطي وخرجت أتفقد البنتين اللتين كانتا نائمتين في غرفتهما.

لبنى تضع الكتاب على وجهها ويبدو أنها استسلمت للنوم وهي تقرأ. وميس الصغيرة منقلبة على بطنها من دون غطاء بسبب الغرفة الساخنة نسبياً. فأرجعتُ على جسدها الصغير شرشفاً كانت قد أزاحته عنها.

ميس طفلة السنة الواحدة التي جاءت في غير أوانها بعد لبنى الجامعية فملأتنا سعادة وحباً للحياة ، لكنها فارقت نور ستة أشهر عصيبة فتشبثت بأختها واعتادتها كقطة صغيرة لا تفارقها كثيراً.

يشرق الفجر في وجهها

عندما عدت الى الغرفة بحيوية كانت نور مفتوحة العينين وعلى وجهها ابتسامة الفجر المشرقة كأنثى يشرق الفجر في وجهها قبل أن يشرق في السماء ، مستغرقة بتأمل الحياة في بزوغها الأول، فأشاعت بي روحاً كبيرة من الحب والتفاؤل والأمل.

قالت بصوت ناعس : لا تتركني.

جلست الى جوارها أفرّق شعرها المفروش بأصابعي وأدعوها للنهوض المبكر. بينما كانت إحدى يديها بين فخذيها المطبقتين عليها.

- أخاف أن لا تكون معي.

يدها الأخرى تمسك يدي وتفرك أصابعي.

- معكِ كل الوقت.

وضعتْ بعض أصابعي على شفتيها.

- نمنا جيداً.

- لم أنمْ .. كنتُ أتأملكِ.

قبّلتْ أصابعي ووضعتْ بعضها بين شفتيها وأخذت تمرر لسانها عليها بشغف. فتسربت لذة دبقة خفيفة في

جسـدي، وحينـما حاولـت سـحب أصابعـي برفـق تشـبثت بهـا وعينـا الديـك فيهـا ترفّـان رفيفـاً بطيئـاً بتلـك اللمعـة المغريـة الجذابـة كمـن تشـعر بلـذة بـاردة تحـت لسـانها.

- أريدك.

شـعرها الأسـود مفـروش تحتهـا نفـرت منـه خصـلات غـير منتظمـة.

- تعال.

كنـت ألـفُّ عـلى جسـدي منشـفة ورديـة عريضـة غـير أنهـا حرّرتهـا بأصابـع يدهـا وكشـفتني أمامهـا عاريـاً وسـحبتني نحوهـا.. تعـال .. أريـدك.. خائفـة.

سـحبتْ يدهـا الثانيـة مـن بـين فخذيهـا وطوقتنـي بذراعيهـا ورائحـة أنوثـة مختمـرة تغـير الهيـل فيهـا الى عبـق الطلْـع الناضـج المشـتبك بجسـدها الخاثـر، وهـي تقـدم لي صدرهـا الأبيـض الناعـم الـذي أشـم فيـه ذلـك التحـول العطـري المثـير مثـل العجينـة الرخـوة ، منتصبـاً بحلمتـين ورديتـين واقفتـين كنهايـات إصبعـي جنـين صغيرتـين لم تصلهـما الشـظايا القديمـة. غـير أنّ ثديهـا الأيـسر كان مصابـاً بشـظية خفيفـة مـع أثـر صغـير تـرك بـثرة حمـراء صغـيرة.

قبّلـتُ ثدييهـا وفركتهـما بلـين ورفـق فقـد كنـت أخـشى تطافـر الشـظايا منهـما. وداعبـتُ حلمتيهـا بلسـاني كطفـل فانتفختـا قليـلاً وتوردتـا وانفتحـت شـفتاها عـن أنـين خافـت فيـما أغمضـت عينيهـا وانسـدلت رموشـها عليهـا بشـهوة واضحـة.

قبّلتها من شفتيها قبلة ناعمة فضغطتْ بصدرها على صدري.

رفعت شفتيّ عنها وكانت مسترخية:

- نؤجل هذا الى المساء.

- لا ..

تركتْ يديها ممدودتين الى الخلف فبانَ بياض إبطيها الناعمين.

- خذني .

- ما بك !

- أشتهيك.

قلت بما يشبه الخوف:

- أرجو أن تكون الشظية قد انحسرت الآن.

- تبزني ..تهيّجني.

كنت عارياً فوقها كما لو أن الصبح المبكر ضخّ بي روحاً ورديةً مفاجئة ، وكانت عاريةً تحتي متلمساً صدرها بشغف، أقبض برفق على حلمةٍ واحدة وأقبض على الثانية وأفركها فأشعر بها كما لو تتفتت مثل النشارة فتزيدني شهوة.

تتأوه تحتي وتتلوى وتموء وتئن فتنفتح في جسدها رائحة

فيهـا عذوبـة الى حـد كبـير.

تأخـذ واحـدة مـن يـديّ وتضغطهـا بـين فخذيهـا .. خـذني .. فتغـرق أصابعـي في بلـل ودبـق ورطوبـة سـائلة هنـاك .. آه .. انفتـح الأنـين الخفيـف ، ثـم كـررتْ صراخ الليلـة الماضيـة كأنهـا تتـألم مـن شيء يوخـز داخلهـا.

ثمـة شيء كبـذرة صلبـة تتحـرك في لحمـة ناتئـة لا تسـتقر حـين تمـر أصابعـي عليهـا تزيـد مـن تشـنجها وتوهجهـا وألمها وشـبقها ، فتسـحبني إليهـا كـما لـو تريـدني أن أقـضي عليهـا.

...

كنت أرى نور شظية جارحة.

الفصل الثاني
فضيحة الشظية

(1)

خرجتُ الى دائرة عملي وفكرة واحدة تدور في رأسي.

كانت مزيجاً من الإحساس بالنشوة المفاجئة، اختلطت فيها دهشة شخصية مصدرها شهوة نور التي لم تخفِها عني بل أشاعتها بطريقة شهوانية ممتعة ، فأحسست بأن جسدها ما يزال متماسكاً وبضّاً كما أعرفه وإنْ كنت متردداً وحذراً منه أول الأمر، لكن تدرجت الرغبة حينما فتحت نور كل قلبها وجسدها بشكل جميل ،فأزاحت عني الخوف والتردد واستقرت في صميم الحميمية المفتقدة بانفتاح الرغبة الجنسية المتكررة.

كنت أشعر بسعادة أولى واثقاً بشكل ما من أنّ نور تجاوزت أزمة الشظية الصغيرة التي لم يستطع الجرّاحون استخراجها من المكان لحساسيته المفرطة وطلبوا تأجيل النظر فيها الى وقت آخر.

(2)

شظايا كثيرة أُستُخْرجت من جسدها بأحجام متوسطة وصغيرة ، سوى الدقيقة منها والناعمة التي تشبه النشارة ، وأخرى كالفتيت ونثار الكِسَر المعدنية تُركت وتسربت مع جسدها ، إلا شظية صغيرة واحدة أكتُشفت عبر الأشعة الملونة فائقة الدقة بقيتْ على حالها من دون أن يكون ثمة قرار لاستئصالها.

« إخراج هذه الشظية قد يسبب بعض المشاكل لحساسية المكان لكنها ستزول مع الوقت أو تستقر في مكانها وتصبح ضمن عناصر المكان ولا تؤثر على عمل العضو.»

هكذا طمأنني به آخر جرّاح أشرف على جسدها ،عندما كان يفحص في رقاقة شعاعية حساسة أخيرة بعينيه الثاقبتين ليتوقف عند نقطة أسفل الشريحة الشعاعية تكاد لا تُرى، مؤشراً عليها بإصبعه.

« مثل هذه الأجسام الغريبة لا تؤثر كثيراً وستكون ضمن نسيج الجسد بمرور الوقت.»

وقتها كانت نور تعرض جسدها على الأطباء في سابقة عري غير معهودة أو مقبولة ، حتى كنت أفكر بأن هذه الزوجة الخجولة - حتى مني- كيف استوعبت كل فضيحة العري مع عيون الأطباء والجرّاحين ، حينما استخرجوا شظايا كثيرة من جسدها وفتيت حصى وألواح زجاج صغيرة ورؤوس معادن وأخشاب متنافرة؛ حتى من ثديها وسرّتها

ومؤخرتها. إلا هذه الشظية الصغيرة الناعمة التي نبتت في مكانها الحساس وبقي الجراحون حائرين في تصفيتها مع جملة الشظايا التي استخرجوها!

لكن نور تعافت أخيراً.

أشكر الرب الذي منحها الحياة ثانية وبقيت تلك اللحظة العاصفة غير المتوقعة ذكرى سوداء كادت أن تموت فيها مع مَن ماتوا أو تتشوه بشكل مفزع ، كما تشوهت نساء ورجال وأطفال واحترقت وجوههم في العصف الناري الذي انفتح من آخر مفخخة لعينة في بغداد.

(3)

لا يمكن لنور ولي أيضاً أن ننسى يوم الفزع الكبير الذي أحرق السوق والناس وأحال حياتنا الى جحيم مبهم وعرّض جسد زوجتي الخجول في المستشفيات والعيادات الطبية الخاصة الى العيون التي رأته ، وتنقلت عليه وفحصته ولمسته في أكثر المناطق سرية وعفةً.

لم أرَ خجلها الفطري الذي أعرفه حين مارستُ معها ليلة أمس. بل كانت تدعوني الى ذلك بشكل صريح، وحتى همهماتها التي تتعثر بين شفتيها أفصحت عن رغبة عميقة لم تعد قادرة على إخفائها فطفحت بطريقة جميلة ومباشرة، لكنها كانت تتألم بسبب الشظية الصغيرة المستقرة في بظرها المضموم وتسبب لها خيط دم رفيع أو نقطة صغيرة باهتة

تتفتت على الوسادة.

كنت أقول لنفسي ربما الحرب أظهرت عريها أمام الناس ورأوه ولمسوه في غفلة الجروح الكثيرة التي انتشرت في جسدها ، وبالتالي فصلت عنها روح الخجل الفطري الذي كانت تحافظ عليه.

لعل هذا ما حدث.

فالحرب عارية لا شرف لها في الأحوال كلها.

جعلتنا عراة على الملأ ، ونور ضمن هذا العري مع القطيع الجماعي الذي غادره الحياء تحت قسوة الجروح ووساخة الحرب كلها.

كنت أحب حياءها القروي وأزداد عشقاً لجمال فطرتها وقوة المعاشرة معها.

لم تدعني يوماً أرى جسدها كله.

حياء مبالَغ فيه ولا معنى له في اللحظات الحميمة التي كانت تجمعنا دائماً.

- نور ..أنا زوجك.

- ولو ..

(4)

بعد الشظايا تغيرت كأنها خرجت من قبر الى حياة ثانية بأعجوبة لا تريد تصديقها ، لتمارس عريها بحرية مفتوحة كأنما الشظية الصغيرة المتبقية تبرر عُريها معي وتزيل خجلها الفطري فتزيد من أنوثتها وشهوانيتها والتصاقها الحميم بي.

- لو تعرف كم أشتهيك.

كانت عارية تعرض جسدها بطريقة غريبة، فلم يحدث هذا طيلة علاقتنا الزوجية، بل كانت بعض الإشارات الخفيّة بيننا حينما نرغب كلانا بلقاء حميم بعيداً عن عيون ابنتيّ ، لاسيما لبنى البنت الناضجة التي تتلمس طريقها في الحياة الجامعية. غير أن ما حدث ليلة أمس جعلني أشعر بغرابة ما حصل وأطيل التأمل فيه وإن كنتُ متناغماً مع اللذة المسكونة في جسدي وروحي حتى الآن.

(5)

نحن تقليديان في الإثارة والتهيؤ للمعاشرة الزوجية ككل الأزواج ، فالجنس وعلى مدار عشرين سنة تقريباً لا يتعدى اللقاء الجسدي الحميم وشهوة الفعل المشترك الذي يجتذبه الحب الكبير بيننا. لكن ما حدث ليلة أمس وفجر اليوم كان أكثر من حميميتنا القديمة ، واشتهاءات زوجتي ربما كانت فوق طاقتي، لكنني بصراحة مارستُ معها بشهية

ولّدتها هي بداخلي بحركاتها المثيرة ورائحة جسدها المدهشة ، كأنني وجدتُ جسداً لم أفهمه طوال عشرين سنة من الزواج والحب، وعثرتُ على رائحة نسيتها عبر تكرار الوسادة والليل والشهوة الطبيعية التي تجمعنا سابقاً. لكن عليّ أن أنتبه الى أن هناك شظية ما تزال مستقرة في لحمتها الناعمة تسبب لها شيئاً من الأذى أو الحكّة أو الصراخ المفاجئ.. أو ربما الشهوة المفرطة.

الموظفة الثلاثينية

في العمل حاولتُ أن أنسى ليالي ونهارات السرير واشتهاءات نور ورغباتها التي تكررت بطريقة مفاجئة غير متوقعة بالنسبة لي، وتقصدت أن أقضي معظم وقت الدوام في الأقسام مع الأصدقاء وسيدات الدائرة، متنقلاً من مكان الى آخر ومن غرفة الى ثانية بشعور لذيذ توطّن بي وامتثل على وجهي وخفّة جسدي وروحي الفيّاضة بالمحبة ، لكنني حاولتُ أن أبدو طبيعياً وأطرد أشكال زوجتي المتبدلة على الفراش ورائحتها المثيرة الغريبة ، وصراخها المكبوت حينما أدخلها بشهوة جارحة.

كنتُ أتفقد أصدقاء وصديقات العمل كعادتي . أشرب الشاي هنا والقهوة هناك. في الذاتية والحسابات والإعلام والإدارة والاستعلامات حتى يتبدد الوقت المضني في صيف الدوام الطويل.

سألتني ساجدة - الموظفة الثلاثينية في قسم التدقيق وهي في طريقها الى المصعد:

- كيف حال نور ؟

- الحمد لله .. تحسنت صحتها كثيراً.

كانت وجهها محصوراً بحجابٍ سُمّاقي فبرزت منه عيناها

الصغيرتـان.

- وهل أُخرِجت منها الشظايا ؟

- تقريباً.

شـقّ قميصهـا الأبيـض عـن حمالـة صدرهـا السـوداء وكان سـاعداها عاريـين.

تساءلت وصوتها منخفض:

- هل أنت سعيد ؟

كان وميض عينيها مخذولاً الى حد ما.

- الحمد لله.

بقيـت واقفـة أمامـي وعيناهـا الصغيرتـان تحدقـان بوجهـي ولم أسـتطع تمييـز مـا فيهـما مثـل كل مـرة.

- سلامي الى نور وتمنياتي لها بالصحة والعافية.

لـوت رقبتهـا وانسـحبت الى المصعـد الـذي انفتـح بابـه الرصاصي عـن ضـوء كشـف جسـدها المرصـوص تحـت بنطـال كاوبـوي صحـراوي ضيـق.

بقيـتُ وقتـاً قصـيراً أنظـر الى المصعـد المغلـق .أترقـب إشـارته الرقميـة الحمـراء التـي توقفـت في الطابـق الثـاني ، حيـث كافتيريـا الموظفـين التـي تبـدد وقتـاً جيـداً في الثرثـرة الطويلـة التـي ليـس لهـا حـدود ، وكنـت مـتردد النـزول الى الكافتيريـا كما

لـو أن عطـر سـاجدة الـذي بقـي معـي أمـام المصعـد يحفّـزني الى هنـاك، وأعتقـد قـد خالطنـي شـك صغـير بأنهـا تنتظـرني لكـن مـن دون سـبب حقيقـي ، سـوى أنـه شـك أو هاجـس غـير معـروف المصـدر جعلنـي أفكـر هكـذا للحظـة قصـيرة لـولا رنـين النقّـال المفاجـئ ، إذ اسـتقر اسـم نـور بحروفـه الثلاثـة عـلى الشاشـة :

- تأخرت ..!

- هههههـه أمامـي سـاعتان .. وأخـرى أتجـاوز بهـا الازدحـام.. يعنـي ثـلاث سـاعات.. طمنينـي عنـك وعـن البنـات.

- لبنى في الجامعة وميس تلعب .. لكنني مشتاقة كثيييراً.

في صوتهـا شـبق ودلـع وخفّـة مراهقـة أعـاد لي ليـالي الجنـس الحميميـة والصباحـات الساخنة التـي لا تقـل حميميـة عنهـا.

غابـت لحظـة الثلاثينيـة سـاجدة فـوراً عـن ذاكـرتي وتركـت المصعـد بهـدوء ، متجـولاً في أروقـة الدائـرة بـروحٍ أكـثر نشـاطاً وحيويـة ، وفي رأسي نـور بكامـل وهجهـا الجميـل ، وأنـا أتخيلهـا الآن بثيـابٍ شـفافة تكشـف الكثـير مـن جسـدها المبقّـع بأيـدي الجراحـين ، كمـن تسـتعيد غيبوباتهـا الطويلـة وتجمـع جسـدها مـن جديـد بمكابـرة شـخصية ، فنـور مـا بعـد الشـظايا هـي ليسـت مـا قبلهـا في هـذا الجانـب الشـخصي الحميـم بيننـا ، ومـع أننـي لا أجـزم كثـيراً وأقـرر هـذا التحـول المثـير في شـخصيتها السريـة إلا أنـه مـن الواضـح أنهـا أنثـى أخـرى خرجـت مـن مأتـم الشـظايا كـما هـي لكنهـا ليسـت كـما هـي

في الوقت نفسه ، وهذا أمر يحتاج مني الى تبصّر ومراقبة واستعداد آخر لأكون في تمام الحالة المتغيرة. غير أنني في الحالات كلها أشعر بسعادة عندما استعادت زوجتي نشاطها وروحها وأنوثتها بعد أكثر من عملية جراحية صغيرة ومتوسطة حفرت جسدها من كل مكان ، مع أنها أزالت بعض الشامات من بطنها وتحت سرّتها، إلا الشظية الصغيرة الأخيرة التي بقيت مدسوسة في لحمتها الصغيرة والتي اكتشفتها الأشعة الأخيرة ، واستبقاها الجرّاح كأي شيء مهمل يبقى في الجسد ويتعاضد فيه مع الوقت.

نور لم تفعل هذا ولم تطلبه مني طيلة أكثر عشرين سنة ، بالرغم من الحب المشترك الذي يجمعنا والذي جعلني أبدو سعيداً على مدار حياتي البسيطة مع ابنتيّ الجميلتين. لذلك طلبت من رئيس القسم أن أخرج قبل ساعة من انتهاء الدوام معللاً وجوب حضوري في البيت لأشغالٍ بيتية طارئة قبل أن تزدحم الشوارع وتكتظ مع نهاية الدوام الرسمي للوزارات والدوائر.

فقدت التركيز النسبي على أوراقي وحاسبتي والأرقام والحروف وكتب الصادرة والواردة وتشتت ذهني في مكانٍ آخر، فعرجت على رئيس القسم الرجل القديم الطيب واستأذنته بساعة زمنية.

شابني بعض الارتباك وأنا ألتمس منه الساعة الأخيرة ، فلا أعرف لماذا لم أستسغ الانتظار فيما تبقى من وقت الدوام ، ونداءات نور تلحّ في رأسي وصورها الجديدة تحتل خيالي

كأنها امرأة قدِمت من عالَم آخر.

كنت خفيف الروح وأنا أخرج قبل ساعة حينما صادفتني ساجدة - موظفة قسم التدقيق وهي تتهيأ للخروج مثلي قبل ساعة فأقلّنا المصعد الذي امتلأ بعطر أنثى خفيف.

كانت عيناها الصغيرتان جميلتين لكنهما غير سعيدتين كما أعتقد ، وساعداها العاريان أبيضان وحجابها السمّاقي يحصر وجهها الصغير.

- أرجو أن تكون سعيداً.

نزل المصعد بنا بشكل سريع.

ولم تنظر في وجهي.

أرقُّ من قشرة البصل

لعلـه أمـرٌ استحسـنته زوجتـي بفـرح حينـما ضمتنـي وعانقتنـي وهـي تقـودني الى المطبـخ ، مباعِـدة سـاقيها قليـلاً وأنـا أروي لهـا ارتبـاكي حينـما طلبـت السـاعة الزمنيـة الأخـيرة مـن رئيـس القسـم، إذ لم يسـبق لي أن كذبـتُ عليـه كـوني موظفـاً تقليديـاً ومحافظـاً عـلى وجـودي الوظيفـي ولا أجـد مسـوغاً لـترك الدوام مـن دون سـبب.

- هذا وقت قيلولة ميس.. ولبنى تتأخر في الجامعة.

كانـت ترتـدي فسـتاناً أحمـر قصـيراً لم ألحظـه سـابقا عليهـا وقـد شـفّ عـن جسـدها كامـلاً، وكانـت شـفتاها دمويتـين فيـما زينـت سـاعديها ببعـض الأسـاور الذهبيـة فبـدت كغجريـة جميلـة تنتظـر دورهـا في الرقـص أمـام حلقـة ناريـة مسـتعرة.

تخطـو في المطبـخ وتتفقـد بعـض الاحتياجـات التـي نسـيتها وهـي تهيـئ الغـداء.. كأس مـاء ..كأس لـبن .. صحـن زيتـون ..خـضروات .. أووووه نسـيت كل هـذا !

نبههـا الكلـب الماكـث في الحديقـة بنباحـه بعدمـا شـمّ رائحـة الطعـام ، فمـدّت رأسـها مـن النافـذة ، وأرسـلت لـه قُبلـة بأصابعهـا، ثـم هيـأتْ لـه صحنـاً بلاسـتيكياً مـن الطعـام حتـى كـفّ عـن النبـاح.

شرعتُ بالتهام الطعام بشهية متحاشياً النظر إليها من دون سبب، لكنها ظلت تحدثني بين لحظة وأخرى لأرى ملامحها مرةً بعد مرة بشكل خاطف ثم بتركيز.

تسحرني بالتواء شفتيها وهي تمضغ الطعام.

وميض عيني الديك المغري يشي بنور أخرى أكثر جاذبية ورقة ودلعاً وشباباً. فما تزال رموشها الطويلة تظلل عينيها ، وعنقها الطويل ببياضه المصاب بشظايا صغيرة ، ومفرق صدرها المليء بالعطر والمبرقش أيضاً بآثار خياطة طبية.

تملكني شعور من أنها أفتى مني وأقل عمراً، وكنتُ أنظر الى نفسي في عينيها الغارقتين بالضوء والاشتهاءات التي تطفر منهما بشكل أكاد أقول أنه جديد في علاقتنا ،لأراني جميلاً وأكثر وسامة حينما تنعكس في ذلك العمق الزوجي روح نور الجميلة مناغية حواسي السرية الجسدية ، كلما رأت ذلك متاحاً في أيام تتقارب أو تتباعد حسب الإشارات البسيطة بيننا كما يفعل الأزواج عادةً. لكنها خرقت القاعدة وبدت أكثر شهوانية وجمالاً أيضاً من دون تردد، بعدما استباحت الشظايا جسدها المترف ومرّت عليها أصابع وعيون الأطباء والطبيبات والممرضين والممرضات.

أنهيت الغداء وفي رأسي مشاعر مختلفة متنازعة شغلتني طيلة الوقت لتحولاتها واشتهاءاتها التي تأكد لي أنها ماثلة اليوم أيضاً في هيأتها المغرية التي تدعوني صراحة لممارسة جنسية في هذه الظهيرة.

- قبل أن تصحو البنت ...!

- ماذا ..؟

- .. قبل أن تأتي لبنى ..!

تحممتُ سريعاً من دون عناية كافية؛ برأس مشتت تقريباً يرى رغبات زوجية جديدة استولدها الغياب القسري، فتخثر تحت الجروح والشظية الصغيرة المتبقية في لحمتها الناعمة. وهذا ما كنت أقنع نفسي به وأبرره بحب.

أطرد أفكاراً معينة كانت تظهر في مخيلتي ثم أقمعها وأخفيها وأعلل الأمر الى شهوة أربعينية طافحة؛ ربما تسبب بها احتكاك قسري لشظية ماكثة في بظرها ، فتجعلها لا تملك أمر هيجانها الجنسي والنفسي وتتشبث بي أثناء الحميمية المشتركة على السرير حتى تهدأ بلذة كبيرة لم أتحسسها من قبلُ أيضاً.

لم أرتدِ شيئاً تحت المنشفة.

تركتُ عريي تحتها بارداً ومبللاً ، فيما نور سبقتني الى غرفتنا المعطّرة والمرتبة وكان السرير أبيض برّاقاً بفرشة أظنها جديدة أو لم نستعملها سابقاً.

كانت ممددة وعلى جسدها غطاء خفيف وعيناها تترقبان عودتي من الحمام.

- أحبكَ.

عانقتني ولطخت خديّ بأحمر الشفاه عامدة وهي تضحك ثم امتصت شفتيّ بقوة وأنفاسها تحرق وجهي.

- ادخلني ..أنا خائفة.

انتبهت الى هذا «الخوف» المتكرر في حديثها معي ولم أشأ أن أسألها ، فقد كنت أشعر بلذّة أولى وهي تنمّي خدر جسدي ، ونبض قلبي يدق سريعاً برائحة الأنوثة في إبطها ومفرق ثدييها وعطر التفاح ينبثق منه، ولم تكن القبلة العميقة هي التي أدخلتني في غيبوبة مؤقتة، لكن مداعبتها لي من أسفل وبرفق كانت كافية لمزيدٍ من توتري لأدخل في ذلك البلل المثير، فيما شغلتني آهاتها المتتالية المتعالية التي اختلطت بنباح الكلب في الحديقة ؛ وهي تتحول الى كائن مذبوح يريد أن يزفر زفرته الأخيرة تحتي وهو يرفس بكل جسده.

اختض السرير ودارت المروحة أكثر مما يجب، وانتفضت نور أكثر من مرة لكنها لم تصرخ كما توقعت ، ولم تكثر من أنينها الشهواني سوى أنها كانت ترفس بضراوة، لتخنق صوتها الداخلي حتى هدأت تحت عَرَق متصبب اجتاحنا كلانا، فطرحتُ جسدي الى جانبها لاهثاً ورائحتها الغريبة تتضوع في الغرفة وتملأ كل شيء بي. بينما غطّت بنوم لذيذ كما أحسب وتعالى قليلاً شخيرها الخفيف وخرجتْ من صدرها أكثر من آهة وتنهيدة، كما لو تقذف من جوفها شظايا صغيرة تعكّر روحها الطيبة. وبقيتُ أنظر بشكل خاطف الى منطقتها المبللة خفيفة الشعر وأعتقد بأنني

لمحـت أيضـاً خيطـاً رفيعـاً مـن الـدم يشـق طريقـه في عشـبها الخفيـف ببـطء.

نهضـت بحـذر عاريـاً دافعـاً جسـدي الى الحـمّام بشـعور اللـذة الخفيفـة التـي اسـتوطنتني وخيـط الـدم يطـارد رأسي وبـصري. وأخـذتُ أعيـد المشـهد الحميمـي حتـى الخيـط الأحمـر الباهت الـذي لمحتـه بشـكلٍ خاطـف.

هنـاك خيـط دم رفيـع جـداً انسـاب بـين شَـعر عانتهـا الخفيـف وتأكـدت مـن هـذا كـدم بـكارة عـروس صغـيرة لا تعـرف إن كانـت تخفيـه أو تعلنـه في ليلتهـا الأولى.

وحينما خرجت من الحمّام كانت ميس الصغيرة تبكي،

وكان الكلب ينبح،

وكانت نور تفز وتلتحق بالغرفة الأخرى شبه عارية؛

اسـتلقيت في الصالـة متابعـاً مـا تبثـه القنـوات عن معـارك البلاد الأخـيرة واسـتفتاء كردسـتان الـذي جعـل النـاس تترقـب نتائجـه عـلى مضـض ، لكننـي لم أكـن قـادراً عـلى الاسـتمرار بسـماع كل شيء وعـدم سـماعه يعطـي النتيجـة ذاتهـا، فقـد كنـت منشـغلاً بموضـع آخـر لا علاقـة لـه بأخبـار الوطـن المتوتـر ولا العالَـم الـذي نـدور في حلقاتـه العسـكرية والسياسـية المتضخمـة. بـل كانـت شـظية صغـيرة جـداً لا تقتـل حتـى عصفـوراً هـي مـا يشـغلني الآن وقـد غطّـت عـلى أحـداث العالَـم بشـكل صريـح.

لم تخرج زوجتي من الغرفة الثانية كأنها نامت مع الصغيرة ميس .

نهضت متحاملاً على نفسي متوخياً الهدوء التام مطلاً من باب الغرفة حتى لا تستيقظ ميس أو نور،غير أنني وجدتها تطبطب على كتف الصغيرة بقوة ، وبدا أن ميس شبعت نوماً من خلال حركاتها المشاغبة وانتفاضاتها المستمرة التي تعبّر عن ضيق لم يتوقف طيلة الوقت.

دخلت محتضناً الطفلة التي شبّت علي فالتقفتها من حضن زوجتي وضممتها بحب وأخذتها الى الصالة وبعثرتُ لها الكثير من الألعاب ، مستمتعاً معها وهي تكلمني بلسان تختلط الحروف فيه وأجيبها بلغتها واضحك لهذه المشاركة الطفولية التي ألتجئ إليها في كثير من الأحيان، تخفيفاً عن متاعب يومية تمتصّها هذه الطفلة التي أخذت من أمها شكلها الجميل.

دخلت نور الى الصالة وقد غطت ثوب البصل بعباءة كحلية خفيفة ووجهها لا يُفصح عن شيء، وكنت منشغلاً مع الصغيرة ميس بلعبة كرة مطاطية أقذفها عليها فتردها وتشتتها بعبثية.

غيّرت القناة التي تركتُها تذيع أخبار ومتابعات استفتاء كردستان ، فخرجت مطربة عربية نصفها جسد والنصف الآخر قماش شفاف وصوتها يحشر الصالة في صدىً غير محبب.

- لبنى تأخرت ..!

- محاضراتها طويلة هذه الأيام.

غـيّرت القنـاة فاختفـى عـري الفنانـة العربيـة وظلـت شاشـة البلازمـا تتقلـب غـير ثابتـة وتجلـب الكثير مـن القنـوات الغنائية والفيلميـة والكرويـة والقرآنيـة للحظـات تمـر خاطفـة ، تتراقـص فيهـا حبيبـات الضـوء الفضيـة وتوشـوش وتئـز حتـى عـادت واسـتقرت عـلى قنـاة محليـة تعيـد حـواراً مـع نائبـة برلمانيـة معروفـة شـعبياً بلسـانها الوسـخ.

- أنا خائفة.

تمتمـت وهـي تضغـط عـلى الريمونـد كونـترول بعصبيـة فتغيّرت صـورة القنـاة واسـتقرت عـلى قنـاة عَرَضيـة تعيـد بـث فيلـم عـن الحـرب العالميـة الثانيـة.

كانـت لقطـة سريعـة عابـرة ، لكنهـا اكتظـت بالحرائـق وأصوات الانفجـارات العاليـة جعـل نـور تقفـز مـن مكانهـا وهـي تصرخ برعـب وتحمـي رأسـها بيديهـا وتفـر الى غرفتهـا، حتـى خلـت أن البيـت قـد امتـلأ بالشـظايا والبـارود والدخان.

الساعة الجنسية

كلمتني أكثر من مرة هذا النهار فوعدتها بالعودة في الساعة الأخيرة قبل نهاية الدوام.

كان صوتها يحمل نبرة إغراء فظيعة. وبقيت أتصورها الآن مائعة الشفتين بصدرٍ متماسك نصف عارٍ، وبعطرٍ غامض ورائحة أنوثة مختلطة برائحة يود وعصير تفاح قديم.

- بقيتْ ساعة.

- احتاجك .. تعال.

ترددتُ قبل أن أستأذنَ من رئيس القسم للخروج من الدائرة قبل الموظفين ، لكن رسائلها الهاتفية أربكتني، فالوقت يجري في زحمة السير وانغلاق الطرقات إن لم تصادف حوادث تفجير متوقعة في كل مكان لتزيد من الوقت تأخيراً وإزعاجاً وقلقاً.

رئيس القسم رجل طيب ومهذب وموظف قديم سألني بصدق:

- لك كل يوم الساعة الأخيرة لكن أخبرني ما قصة هذه الساعة الأخيرة؟

- زوجتي مريضة.

لا أعرف لِمَ قلت هذا كما لو أنني استعجلت في التبرير فخالجني شعور من أنني كذبت عليه مع أنه استدرك التباس المعنى ، فالرجل يعرف قصة زوجتي وإصاباتها الكثيرة .

- إن شاء الله سلامات.

لم أقل شيئاً.

المبالغات الصغيرة مربكة ومكشوفة كأنها دالّة مفضوحة.

كنت أفكر بخجل طفيف مرتبكاً قليلاً لمبالغة ليست في محلها.

- زوجتي مريضة فعلاً أستاذ.. الشظايا المتبقية تؤلمها.

- لك الساعة الأخيرة كل يوم حتى تشفى زوجتك بإذن الله.

منحني الساعة الأخيرة فعلاً تفادياً لزحام الشوارع في نهايات الدوام الرسمي، فخرجت الى الشارع باحثاً عن تاكسي بدلاً من انتظار سيارات النقل العام. أحث نفسي على الوصول الى البيت ورسائل الهواتف ترن بين فترة وأخرى.

كانت الرسالة الأخيرة فيها كلمة (خائفة) فقط.

ساجدة

لم يمهلني سائق التاكسي الشاب الكثير من استدراج الأفكار ومعاينة الحالة اليومية التي أمر بها، بسبب صوت المسجل المرتفع أكثر مما يجب، باثّاً تسجيلات حُسينية معروفة وهو يديم النظر كالمشدوه الى فتيات الشارع المتخاطفات بين زحام السيارات ، كما هو دائم النظر في المرآة المستطيلة التي أمامه الى تشكيلة شعره السبايكي المثخن بالدهون اللمّاعة. وبين حين وحين يمسّده بشكل خفيف ليتأكد من ثباته. ولا ينسى أن يزيد من صوت الأناشيد الحسينية ليملأ فضاء السيارة بأصواتٍ عالية منفّرة وهو يستعين بالصوت الصاخب لخطف أنظار الفتيات.

لم أجرؤ أن أطلب منه تخفيف فوضى الصوت غير المناسب حتى لا أتجاذب معه أي حديث ملتبس، قد يوتّر أعصابي ويُدخلني في متاهات جدل أنا في غنىً عنها، لكنه بقي يزيد من لحظته المسكونة المتناقضة بين شَعره الواقف ككتلة شوكية سوداء وانهماكه بمطاردة الفتيات والنساء المارقات على الأرصفة ، وانشداده بين الأناشيد واللطميات المتفرقعة عالية الصوت.

أشعرني بالقرف ووجدتُ نفسي عالقاً في فوضى سريعة ، لكنني تحاملتُ على نفسي وحاولتُ أن أنشغل بأفكار كثيرة تخص زوجتي ونزوعها الجنسي الغريب بسبب شظية تزيد من رغباتها بشكل غير طبيعي ؛ ولم أكن قد سمعت عن

هـذا ذات مـرة لا في الحـروب ولا في غيرهـا.

لم يتركنـي شـاب التاكـسي أن أعيـد صـور الأيـام الماضيـة وأنفـرد لنفـسي مـن دون عوائـق جانبيـة يسـببها الصـوت النافـر حتـى أصـل الى البيـت، فهـذا المراهـق شـغلني بأصـوات التسـجيل الصاخبـة الناشـزة وجعـل لحظـاتي مسـكونة بالضجـر حتـى طالـت المسـافة أكـثر مـما يجـب.

توزع رأسي في أكثر من اتجاه.

تفتـت في صخـب الـكلام المكـرر والـصراخ المفتعـل وبكائيـات المنابـر التـي لا حـدود لهـا. لكن صورة سـاجدة موظفـة التدقيق خطفـت بعينيهـا الصغيرتـين الجميلتـين واسـتقرت قليـلاً في رأسي ، قبـل أن يعلـو صـوت المسـجل مـن جديـد وتتغـير البكائيـات مـن طـورٍ الى طـور وتختفـي عينـا سـاجدة الصغيرتـان.

أنا خائفة

استقبلتني نور بقبلة خفيفة على خدي ثم مسحت ما علق من أحمر الشفاه وقادتني الى المطبخ.

رشيقة وطويلة وممدودة القامة كصفصافة.

شفتاها حمراوان برائحة الفراولة هذا النهار.

معطرة كلها تحت فستانٍ قصير كشف فخذيها البيضاوين الناعمتين اللتين لا تخلوان من آثار شظايا تركت آثارها على بياضهما الناصع.

كان ساعدها الأيمن يخرخش بأربعة أساور ذهبية. ووجهها المحفوف يشي بأنها أخذت وقتاً طويلاً في الحمّام قبل مجيئي وتهيأت كعادتها هذه الأيام.

- من شنو أنت خائفة ..؟

فتحت عينيها ورفرفت رموشها قليلاً :

- تكتبين لي بأنك خائفة ..!

أمسكت يدي ورددت بخفوت :

- خائفة من كل شيء.

- لا شيء يدعو الى الخوف .

قالت بإصرار :

- كل شيء يدعو الى الخوف.

أحطتها بذراعي وتساءلت بحب:

- هل أنت مريضة ..؟

مالت عليّ أكثر :

- تشعرين بشيء غير طبيعي في حياتنا ؟

- لا.

ترددت قبل أن أقول شيئاً تمخّض عن توترات قصيرة بيننا:

- وما سبب هذه الرغبة القوية عندك ؟

تركتْ رأسَها على صدري:

- أحبكَ وأحتاجك.. أنا خائفة.

قلت بعناد:

- ولكنْ لم يحدث هذا من قبل!

من على صدري قالت:

- ليحدث الآن ..أنت زوجي وحبيبي.

قلت بطريقة إرشادية:

- من أجلك أقول هذا.

وافقتني وهي تهز رأسها على صدري:

- أريدك دائماً.

- هل نراجع طبيبة ؟

- لا.

رفعت رأسها فواجهتني عينا الديك بلمعة متحركة:

- أحب أنفاسك.

غمرتني بعطر أنفاسها لكنني أوضحت بطريقة مباشرة :

- ولكن هذا متعب لنا.

كانت ترتعش قليلا وقالت بشهوة واضحة وشفتاها تلتويان:

- امممممم

أوضحتُ مرة ثانية :

- نحن الرجال ...لسنا مثلكنّ...

تشبثت بي .

كان جسـدها يهتـز وكانـت عيناهـا عميقتـين بالبيـاض الـذي غرقـت فيـه.

بتوسل همهَمتْ:

- قُمْ .

باستني من خدي ومسّت أذني بلسانها الرطب ، ثم قادتني الى الغرفة متعثراً قليلاً كأنما الصوت الجنائزي الذي رافقني في التاكسي ما يزال يلاحقني ، فيضفي بي كآبة حقيقية.

- ما بك ؟

- لا شيء.

كنت قريباً من وجهها :

- أنت لستِ طبيعية.

- لا تقلق.. الشظية تهيجني.

ضمتني الى صدرها ودفنتْ وجهي في شَقه ذي الرائحة المُسكرة التي برعت في تعطيره بالبودرا الناعمة ومسحوق أعشاب غامضة الرائحة.

- أنت دائماً حلوة ومثيرة.. لكنكِ لستِ على ما يرام .

رفعتُ وجهي من صدرها البض:

- ما الذي يحدث ؟

- الخوف.

- من شنو.. ؟

- من كل شيء.

- أنا معك دائماً.. أكثر من عشرين سنة لم تكوني هكذا.

وضعت شفتيها على شفتي ، فاجتاحتني رائحة الفراولة المعتّقة عميقة ومثيرة ، بينما كانت يدها تحركني من الأسفل برفق وتقبض عليه بنعومة أصابعها الطويلة وهي تزيد من التصاقها بي.

زوجة ستينية

طلبني رئيس القسم بالهاتف الداخلي.

لم تكـن في ذهنـي أيـة فكـرة محتملـة قـد نتجـاذب فيهـا الحديـث، حتـى أنّ السـاعة الممنوحـة قبـل انتهـاء الـدوام لي لم يحِـن وقتهـا بعـد. تلـك السـاعة التـي بـدأتُ أتململ منهـا وكان في عزمـي أن أطلـب منـه إلغاءهـا وأكمـل الـدوام الرسـمي كبقيـة الموظفـين.

قلقـت مـن أن يكـون قـد بـدر منـي بعـض الإهـمال في الوظيفـة خـلال الأيـام التـي مضـت، لكننـي كنـتُ عـلى يقـين مـن أن الرجـل مهـذب ولا يأبـه لسـاعة سريعـة ينقـضي معهـا الـدوام غـير أننـي قـد لا أحتاجهـا بعـد الآن ، فقـد أصبحـتْ قيـداً جنسـياً أخـذتُ أشـعر بالملـل منـه. ففـي اليـوم سـاعات كثـيرة لا أسـتطيع الهـرب منهـا دائمـاً ، وهـذه السـاعة الإضافيـة النهاريـة بـدأت تقلقنـي وتتعبنـي ولا أرى مسـوغاً ضروريـاً لهـا.

كان رأسي مثقـلاً بصـور زوجتـي الغارقـة بالشـهوة الفظيعـة، حتـى بـتُّ أشـعر بوتيريـة الفعـل المشـترك وتكـراره الممـل وكنت أفكـر؛ صراحـةً ؛ كيـف أتلافـاه وأتحاشـاه معهـا مـع فرحـي الاسـتثنائي بعـودة جسـدها مـن أيـدي الجراحـين الذيـن درأوا التشـويه المتوقـع وقتهـا؛ لكنهـم لم ينتبهـوا الى وجـود كائـن حديـدي دخيـل، ربمـا هـو أملـس، ترطّـب مـع الأشـهر السـتة والتبـس بـه المـكان السـري ولم يظهـر، لـولا أشـعة ملونـة فائقـة

الوضـوح كشـفته بحجمـه الصغـير جـداً بقـي متحـركاً في بظرهـا اللـيّن كأنـه حيمـن متصلّـب وضـال.

- طمّني.. كيف أحوال المدام ؟

- الحمد لله بخير أستاذ.

- اجلس يا رجل ..أراك مهموماً.

كان مكتبـه الصغـير مكتظـاً بدخـان سـيجارته التـي يمتصّهـا بعصبيـة وبشـكلٍ متتـالٍ وانعقـدت حلقـات بيضـاء تتابعـت بطيئـة واشـتبكت وتفرقـت وهـو ينظـر إليهـا.

كان وديـاً ولطيفـاً ونبيـلاً كـما نعرفـه وكنـتُ أشـعر بارتيـاح العمـل معـه، فهـو موظـف سـبعيني قديـم أو قريـب مـن هـذا العمـر وسـيرته الوظيفيـة والإنسـانية رائعـة، فضـلاً عـن الاهتـمام بأناقتـه الكلاسـيكية التـي تشـيد بهـا موظفـات الدائرة سراً وعلنـاً.

- كنت قلقاً عليك في الأيام الماضية.

- أزمة طفيفة أستاذ.

نفث حزمة كبيرة من دخان سيجارته :

- لكنك لستَ على ما يرام.

قلت بجدية ومن دون شكوى:

- تعرف أستاذ أن أي مرض يلمُّ بالزوجة يتعطل البيت كله.

وافقني وهزّ رأسه وسأل:

- أما تزال الشظايا في جسمها ؟

نظرت إليه بارتياب كأنه يكلمني ويراها عارية الآن:

- بقي القليل منها.. ستزول مع الوقت.

- في أي مكان بقيت..!

نبض قلبي بقوة وشعرت بالإحراج لكنه استدرك :

- المهم ليس قريباً من قلبها.

- لالا الحمد لله.

لم أقل كلاماً كثيراً ولكن شعوراً ما جعلني غير مستأنس في هذا اللقاء حينما بالغت بوصف زوجتي بالمريضة مرة أخرى.

- إن كنت تحتاج الى إجازة لبضعة أيام لا يهم.

- لالا..

ارتبكتُ حينما خرجت الـ لا مزدوجة كالمعترض على هذه الهبة الوظيفية التي يتحايل الموظفون بالحصول عليها.

- اقصد هذه الساعة التي منحتني إياها تكفي.

ولكي أطمئن الأستاذ :

- ربما سأتجاوزها أيضاً..الأمور ستصبح جيدة.

دخلت ساجدة ببنطلون جينز أزرق يعصر فخذيها ووركها، حاملة إضبارة صفراء قدمتها الى رئيس القسم وهي تبعث لي ابتسامة لطيفة وخرجت :

- إن شاء الله تتعدى هذه الأزمة فأنت موظف ملتزم وسلوكك محترم.

- ربي يبارك بيك أستاذ .

- أي شيء تحتاجه أخبرني.

أشعل سيجارة أخرى وركّب نظارة بيضاء على أنفه متطلعاً الى أوراق الإضبارة الصفراء ثم رفع رأسه وقال كمن يستكمل حديثاً توقف:

- مشاكل الزوجات كثيرة يا أخي.

قلت مدافعاً عن شيء غير موجود:

- الحمد لله لا مشاكل بيننا.

قال مستعرضاً خبرة الحياة فيه وهو السبعيني المخضرم :

- أعني .. حتى المرض هو مشكلة.

- إي صح.

أكمل برغبةً أن يقول شيئاً :

- زوجتي مثلاً ليست مريضة لكنها عنيدة.

لم أفهم لكنني بقيتُ أنتظر أن يقول شيئاً :

- الستينيات لهنّ مزاج آخر غير الأربعينيات.

- تمام.

- ما أن تصل المرأة الى هذا العمر حتى تشعر بالشيخوخة ..حالة نفسية مرضية.. لهذا تبتعد عن زوجها كأنها أصبحت في القبر هههههه

- هههههههه

ضحكت من دون أن أفهم ما يقصد.

كنتُ أنتظر مجاملته بعيداً عن الساعة الجنسية التي منحني إياها بود :

- لهذا ترانا نعاني من .. من أشياء كثيرة.

- تمام.

قال كمن يؤكد حقيقة لابد منها:

- الزوجة الستينية ليست عجوزاً.

- لا أبداً.

ابتلع الكثير من الدخان:

- المرأة هي المرأة وفي أي عمر.

قلت بشكل سهل من دون أن أعي ما أقول:

- نعم . الزوجة تبقى زوجة مهما كانت ظروفها.

أخـرج الكثـير مـن الدخـان الى أعـلى وبقـي يراقـب حلقاتـه المنعقـدة بيننـا:

- لذلـك علينـا أن نتحمـل أي وضـع نكـون فيـه لاسـيما لدينـا أولاد وبنـات وأحفـاد كـبروا معنـا.

- هذه هي الحقيقة أستاذ.

أطفأ سيجارته وتطلع الى الساعة في الحائط أمامه:

- لا أريد تأخيرك ..يمكنك أن تخرج حتى قبل ساعتين.

- لو أحتاج أخبرك أستاذ.

- سلامة المدام من كل مرض.

أصبحت كلمة المرض تخيفني كثيراً.

زوجتي ليست مريضة.

إنهـا رائعـة ومخلصـة وأحبهـا، لكـنّ تحولاتهـا الجنسـية المثـيرة لا أفهمهـا كثـيراً، كـما لـو خرجـت مـن داخلهـا صبيّـة جديـدة بكامـل طاقتهـا الشـبقية.

إنه أمر يحيرني بجدية.

وتحيرني الشظية التي بقيت في المكان الحساس.

جنس في الظهيرة

(1)

- لا تتأخر.

تأخرتُ.

تقصدت أن أبدّد الوقت متنقلاً بين سيارات النقل العام في ظهيرة اكتسحتها حرارة مرتفعة ، بالرغم من أنّ ساعة الدوام الأخيرة تكاد تنتهي في زحام الشوارع ، لكنني بقيت متمهلاً ومنزعجاً بِحيرةٍ متفاقمة مع الأيام الجنسية المتوالية.

قيّدني عناد طفولي وأرغمني على أن لا أصل الى البيت في الوقت الذي تريده نور، مطيلاً تنقلي في سيارات النقل الشعبية على قدر ما أستطيع ، حتى لا أنتهي الى السرير مرة أو مرتين بطريقة عبثية ومجنونة.

كنت أتمنى أن أجد لبنى عائدة من الجامعة أو أجد الصغيرة ميس مستيقظة لأهرب من واجب الفراش ومن خيط الدم لشظية متحركة لا تثبت في مكان.

أعيد تشكيل صورة زوجتي برأسي أكثر من مرة.

نور التي استولى الشبق عليها بطريقة فريدة وغريبة غير مألوفة في العلاقات الزوجية الحميمة.

إنها رائعة وجميلة وروحها شفافة وقلبها طيب ، والأكثر من هذا تحبني بفطرة القرويات اللواتي لا يجدن في الحياة غير أزواجهنَ . وكل السنوات العشرين التي جمعتنا لم أجد فيها ما يقلقني أو يجعلني طائشاً بعلاقات عابرة، ومن أجلها تركت الكثير من متع الحياة بل هجرت العديد من الأصدقاء ونسيت منافذ المتعة اليومية لأكون معها وقريباً منها.فأنا رجل بسيط. موظف مسلكي. وزوج تقليدي جداً أهتم بزوجتي وابنتيّ الى حد الشغف.

نور الجميلة زوجتي.

هادئة ومرنة وحبابة وأم بيت شاطرة.

أحبها كثيراً وتزوجتها بظروف ليس فيها صعوبة بعد قصة حب سريعة لا تفاصيل مهمة فيها، ومن أجل ذلك الحب تركتْ دراستها وفضّلت الزواج مني، فقد كانت مهووسة بي، وظلت كل العقدين الماضيين على سجيتها وطيبتها حتى قلبت الشظية الصغيرة المستقرة بين فخذيها مزاجها ولغتها وأوضاعها النفسية كلها.

كنت احتاجها وما زلت.

حتى إصابتها بعدد كبير من الشظايا لم يغير مزاجي عليها، بل كنت أبكي وأجهش وأدعو لها كل الوقت بالشفاء من أجل البنتين الجميلتين ومن أجل بيتي الصغير، ومن أجل كلبنا النباح الذي افتقدها طيلة مكوثها في المستشفى لانتزاع الشظايا من جسدها الأبيض الناعم.

كنتُ وما زلتُ أتحاشى الحياة المحمومة التي تسببت بها أوضاع البلاد المخربطة وداعش والطائفية السياسية ، وبقيتُ أنتمي لبيتي وابنتيّ وزوجتي الحبيبة التي تركت دراستها بقناعة ، بعد قصة حب مناسبة معي ، والتجأت لي كزوجة تفهم حياتنا بشكل رائع.

(2)

حياتي طبيعية وليس فيها ما يستحق التعقيد. فأنا من عامّة الناس المجهولين في بلادٍ كبيرة وواسعة. ونور امرأة طبيعية كل السنوات التي مرّت حتى أنجبت طفلتين ، كبرت منهما لبنى الجامعية وجاءت الثانية متأخرة كثيراً فملأتنا سعادةً وحباً وتحولنا معها الى طفلين صغيرين لا نعرف من الخارج شيئاً ولا نسمع سوى أخبار الحياة البائسة عبر لصوصها السياسيين ، ودوي الانفجارات بين فترة وأخرى ، ونأسف أن يموت الناس بهذه الطريقة السهلة والمجانية ، وتضيع بغداد بالطريقة المخزية التي ظلت تؤلمنا كلنا.

نحن هكذا باختصار.

لا يوجد ما يعكّر صفونا سوى الحياة العامة التي لا نستطيع تجنبها بأية حالٍ من الأحوال. حياة السياسة الطائفية التي غيرت فينا المزاج وجعلتنا ننتظر ما هو أسوأ من الطائفية. لكن المصاب الشخصي يختصر تلك القائمة الوطنية من الرعب والعذاب ويصبح كأنه استهدفك أنت لا غيرك ، مع

أن المأتم واسع ويتسع كل يوم في حياتنا الصغيرة والجميع مصابون بالشظايا في كل مكان لاسيما في أرواحهم.

نسيتُ أنني جزءٌ من المأتم العراقي الأسود ، فانشغلتُ سعيداً بعض الشيء بزوجتي بعد خروجها من المستشفى بجروح وحروق التأمت تقريباً لكنها بآثار ليست خافية في جسدها.

أقول مريضة ولا أعلم إنْ كانت مريضة أم لا حتى الآن ، مع يقيني أنها شفيت وبقي جسدها يحمل آثار الشظايا واختفت أو ضمرت بعض شاماتها من على جسدها ، تلك التي كنت أمسّدها أو أقبّلها أو أمرّر أصابعي عليها قبل انفجار المفخخة.

أحياناً لا تظهر الأمراض على نحوٍ يدعونا لأن نراها ، فنعتقد أن المريض هو مَن يبقى على السرير يئن ونشتري له الأدوية الكثيرة ونصرف عليه الرواتب الشبحية ثم نقترض من الآخرين ونقع في ورطة الديون الثقيلة.

كنت أقول أنّ أمراض النساء شخصية في الغالب وأمراض الرجال مرئية وعامة. وهذه قناعة بسيطة لستُ متأكداً منها على أية حال.

(3)

وصلتني رسالة على هاتفي ولم أقرأها.

تجنبت الاستعطاف والرغبات الملحّة التي لا تنتهي، لكنني بقيتُ قلقاً من دون أن أشعر بالارتياح حتى مرت ساعة الجنس بزحام الشوارع واكتظاظها بالسيارات، وانطوت نصف الساعة التي يتوجب أن تكون بعد انتهاء الدوام حتى وصلت الى البيت جائعاً ومتعرقاً أشعر بالنرفزة من الجو الحار والوقت الطويل الذي قضيته في سيارات النقل العام.

لم أصل في الوقت الذي أتوقع فيه أن تكون ميس الصغيرة نائمة ، لكنْ وجدتُ لبنى قد سبقتي في الوصول الى البيت فارتحتُ كثيراً.

- ماما تنتظرك.

دخلت الحمّام بجسدٍ متعَب ورأسٍ مفكك وروح ذوبتها الشمس كثيراً.

كنت أسمع صدى موسيقى وفتيت أنغام تتصادى في غرفة نور فأيقنتُ أنها كانت ترقص كل هذا الوقت الذي بدّدته بتأخير وصولي الى البيت.

في المطبخ كانت نور تبتسم وقد أعدّت الغداء بشكل مرتّب وشهي.

عاتبتني لأنني لم أرد على رسالتها.

قالـت أنهـا خائفـة عـلي مـن احتـمالات الشـوارع والمفخخـات والانتحاريـين والشـظايا.

قلـت لهـا أن آخـر مفخخـة في بغـداد قـد أصابتـك شـظاياها لتكـوني آخِـر الضحايـا.

كانـت جميلـة بلمعتـي عينيهـا ورموشـها المنسـدلة وفسـتانها الطويـل وصدرهـا الأبيـض البـارز بـلا حمّالتـه القطنيـة.

- تأخرتَ كثيراً.

- الزحام لا يُطاق.

- عندك ساعة قبل نهاية الدوام كما أخبرتَني.

- خـلاص. موظفـون غيـورون سـببوا إحراجـاً لرئيـس القسـم فتنازلـتُ عنهـا.

ابتكـرت العـذر لألغـي السـاعة الجنسـية المهلكـة بيننـا، وأتحـرر مـن ثقـل الجنـس المتواصـل الـذي أقـدِمُ عليـه بـلا رغبـة في الآونـة الأخـيرة.

ثم غيرتُ الحديث:

- ميس تنام كثيراً !

- رقصت كل الوقت معي حتى جاءت لبنى.

تـأكل ببـطء وأصابعهـا الممـدودة في صحـن الطعـام تتأخـر حتـى ترفعهـا.

أظن أنها كانت تنصت لنباح الكلب في الحديقة.

- أشعر بالتعب .. الجو حار جداً.

كنتُ أهيئ نفسي للنوم في غرفة أخرى فناديت على لبنى أن تهيئ لي فراشاً سريعاً وتشغّل المبردة في الغرفة العليا التي تركتُها منذ زمن طويل.

وكان هذا التحول إيذاناً بأنني بدأت أتململ من جنس الظهيرة.

ربما لم أعد أطيقه بعد.

أنتَ تؤذيني بغيابك

ينتابني خجلٌ حتى مع نفسي حينما أجد أنني هربت يومين أو ثلاثة الى غرفة أخرى بذريعة التعب والحر وانقطاع الكهرباء وآلام مفاصلي وسوء الحياة العامة كل يوم.

لقد كنتُ في اختبار جنسي قد أفشل فيه بسبب شظية كشفتها أشعة دقيقة في آخر المطاف، غير أنني لا أفشل بأي اختبار في حب نور العظيمة التي تغير مزاجها وتحولت الى زوجة جنسية يقرصها بظرها بوجود شظية ناعمة فيسبب لها احتكاكاً في مكانها الحساس.

أحبها وأحب الجنس والحياة معها بمزاج الزوج البسيط الطيب الذي يرى فيها اكتمال روح البيت ببنتيه الجميلتين، ولاشك أن نور هي سُرّة البيت وسِرّهُ أيضاً.

كانت تصرخ في الليل الصراخ المقطوع الذي أعرفه منذ خروجها من المستشفى ؛ لكنني لم أكنْ معها فبقيتُ أترقب عذابها الجنسي باحتكاك الشظية الصغيرة في المكان وما تسببه من هيجان على مدار الوقت.

أتألم وأشعر بالانقباض وأفكر كثيراً في كيفية تلافي هذه الأزمة غير المتوقعة بيننا. أرثي لنور في سريرتي وهي تذوب من الألم الجديد وتتوحش كثيراً بسبب الحكّة المهيّجة التي تدفع جسدها لي مضطرة وهي تفقد الكثير من شخصيتها الراسخة الطيبة وتتحول الى امرأة مريضة بالجنس الاضطراري، وهذا ما كان يبعث الخوف في داخلي ويشلُّ تفكيري فتطوف في رأسي خيالات كثيرة تشعرني بالذل والضعف.

اعتذرتُ منها وقبّلتها من كل مكان وكانت تبكي وكنتُ أشعر بالذنب:

- هل كرهتني..؟

لم أفارقها طوال سنوات زواجنا ، حريصاً على أن نكون معاً وبيننا أشياؤنا المتواضعة في البيت التي نحرص على أن تكون فيها يوميات سعيدة مع لبنى وميس الصغيرة.. الستائر الناعمة والكراسي الابنوسية والمناضد والأفرشة واللوحات التجارية المعلقة على حيطان البيت والثياب الكثيرة والخزفيات والمطبخ بروائحه اليومية وألعاب ميس المتكاثرة ، والغرف التي تستذكر أنفاسنا والبرد والمطر والصيف والكهرباء والكلب البوليسي ودفاتر لبنى ، والحديقة التي

نبتت فيها أزهار مختلفة والهواتف النقالة والسجاجيد الملفوفة، ودفء البيت وحنانها الأنثوي الذي يشابه حنان الأم.

كل شيء جميل في بيتنا وأوله نور.

كان وجهها يخلو من ملامحها المعتادة بالرغم من زينتها المثيرة وعطرها الباذخ وأساورها الرجّاجة ورائحتها الفريدة الغريبة.

ضممتها وكانت تجهش قليلاً :

- أنتَ تؤذيني بغيابك.

- لم أغبْ عنك.

داعبتني من ظهري :

- جسدي يؤلمني.. الشظية تتحرك في ..

سحبتْ وجهها من على كتفي ورفّت عيناها الدامعتان في وجهي :

- كيف تقضي على شظيتي ؟!

كانت متوردة لكنها غير مستقرة وكان سؤالها مخيفاً:

- ما الذي يخيفك ؟

- الشظية. وكل شيء حولي.

- أنا حولك ولبنى وميس.

- أخاف عليكم كلكم من الشظايا.

قرصتها من خدها :

- أنـت سـعادتي ..لبنـى كـبرت وصـارت أنثـى حلـوة. وميـس تحبـو وسـتكبر هـي أيضـاً.

جلست على السرير وهي تسحبني معها:

- نحن نكبر مع الخوف من هذه الحياة.

- الحياة ليست كما نريد ولا يمكن ضبطها كثيراً.

- لا تغبْ عن جسدي ..أرتعش أكثر بغيابك.

قلت وأنا أضحك :

- هل تخافين من جسدك ؟

- امممم الشظية تتحرك فتؤلمني.

طوقتني بذراعيها.

ضخّـت في روحـي رائحـة هيـل بقبلـة ناعمـة وطويلـة، لكننـي بقيـت غـير فعّـال سـوى مـن حـركات مطلوبـة لتمريـر القُبلـة دون سـواها.

لم أفقد صلتي الروحية بنور ولا أفقدها يوماً ما.

لكنني في طريقي لأن أفقد الصلة الجنسية التي تضخمت بها بوجود حشرة حديدية ناعمة تتموج في تلك اللحمة المنتصبة على مدار اليوم.

كنت أفقد الكثير من شخصيتي أمامها ، فيعتورني الخجل حينما أجد نفسي غير قادر على الانتصاب مع هذا الإلحاح المميت، وكنت أتضاءل حينما أجد نور تلجأ الى ممارسة الإثارة الذاتية وتصرخ حينما تجدني غير منتصب بما يكفي لإروائها في الفراش ،حتى ظننتُ بأنها ليست زوجتي الهادئة والخجولة من هذه التفاصيل الجسدية السرية التي قضيت معها سنواتٍ طويلة على سرير واحد.

لم أتصور ولا مرة واحدة أنها تمارس العادة السرية وأسفلها مبلل دائماً بشكل بدت فيه هذه اللزوجة مقرفة الى حد أوجعت فيه روحي.

أقول لها بوضوح وقسوة:

- أنت مريضة.

- الشظية.

تصرخ بهستيريا وتنادي أشباحاً في غرفة النوم وهي تصرخ بمرارة آلمتني فعلاً.

- أخرِجوا الشظية.

فقدتُ جزءاً غير قليل من عواطفي الجنسية معها. وحاولت أن لا أستجيب لغريزتها الجديدة المتفتحة بشكلٍ مهول في

محاولـة لإيقـاف الكثـير مـن هـذا الشـغف غـير المعقـول ، وكنـتُ أجاهـد لأن أحميهـا مـن أي طـارئ يطـرأ عليهـا فيحيـل حياتنـا الى مـرض لا نعـرف أسـبابه وبالتـالي لا نعـرف تشـخيصه.

أشعر بالحزن من أجلها.

حـررت الى حـد مـا نفـسي مـن هـذه الواجبـات الجنسـية الثقيلـة لكـن بقيـتْ نـور حزينـة وكئيبـة. تـزداد تشـبثاً بخـوفٍ مجهـول يعصـف بهـا وبمنطقتهـا الرطبـة السـاخنة التـي تـدور فيهـا حـشرة حديديـة صغـيرة ، تجعلهـا تقبـض عـلى وسـطها وتفركـه وقتـاً أطـول حتـى أشـعر أنهـا تسـلخ المـكان الرقيـق وتنتقـم منـه.

تـراودني وتسـتميلني وتدخـل في جسـدي كطفلـة تخـشى أشـباح الظـلام التـي تنمـو في رأسـها ومخيلتهـا.

- أنتِ مريضة . علينا أن نراجع طبيبة.

ببرود تقول :

- لا شيء بي .. سوى أنني أريدك أكثر.

أصرُّ بقليل من العصبية :

- لا وقت للانتظار قبل أن يستفحل وضعك.

ترد ببرود أكثر:

- هل أقول للطبيبة أنني أعشق زوجي وأريده دائماً ؟

- اي.. قـولي لهـا هـذا بالتفصيـل.. لقـد تغـيرتْ فيـكِ أشـياء مهمـة.

- الجنـس ليـس مرضـاً لكـن الشـظية هـي المـرض.. تحكّنـي وتقرصنـي.

ثم تمتمتْ :

- الشظية ..أنا خائفة.

صحت بعصبية ولم أستطع السيطرة على ضبط لساني :

- الخـوف .. الخـوف الوهمـي الـذي تكررينـه.. مـا الـذي يخيفـك ؟

عقدت حاجبيها وتغيرت سحنتها :

- كل شيء يخيفنـي.. جسـدي مُخَـدّر.. هنـاك شيء بي يمارسـني بالإكـراه.

هدأتُ قليلاً :

- سنحلّ هذه المشكلة مع طبيبة مختصة.

التفتت لي وفكّت عقدة حاجبيها:

- ولماذا يضايقك جسدي ؟

صرخت بصراحة :

- لسـت قـادراً عـلى تلبيـة رغبتـك عـلى مـدار اليـوم .. لسـتُ

آلـة.. وجسـدك أيضـاً سـيمرض بهـذه الطريقـة المُلحّـة.. سـنعالج أمـر الشـظية مـن جديـد ولـو أنهـا في مـكان حسـاس جراحيـاً.

- تعذبنـي .. وتزيـدني شـهوة.. تتحـرك في المـكان كأنهـا جـزء منـك أنـتَ ..!

كنـتُ أنـا الخائـف وكانـت نـور جميلـة مـع طيـف الخـوف الشـهواني الـذي يلازمهـا.

ظلّـت تحـيّرني وتحيّرهـا شـظيتها المتحركـة وتزيـد مـن وهجهـا الجنـسي صراحـة ، كلغـم موقـوت يعمـل في الوقـت الـذي يشـاء تحـت برمجـة سـاعة مخفيـة لا أراهـا أنـا ولا تراهـا هـي.

الكلاب أرواح

ينبح الكلب عبر نافذة الصالة من الجهة الخلفية للحديقة بشكل دائم.

طردته وأغلقت النافذة بامتعاض على غير عادتي، بشعور من أنه لا معنى لوجوده في حديقة البيت الخلفية بعد استتاب الأمن في العاصمة الى حد كبير.

لا أعرف لِمَ تعاملت معه بهذه الطريقة.

ربما لاحظت لبنى شيئاً من توتري وأنا أقسو على الكلب.

لبنى شابة حلوة وأليفة وجميلة ، تهتم بدراستها بشكل مبالغ فيه.

- ماما زعلانة ؟

تساءلتْ.

- لا

احتضنتها وأنا أمسّد شعرها الأسود الفاحم :

- قد تكون مزعوجة من شيء.

- معتكفة في الغرفة منذ ساعات طويلة.

صفنتُ قليلاً :

- لا عليكِ .. سأراها .

كانت الظهيرة ساخنة والتيار الكهربائي يتقطع فيزيد البيت سخونة وأزداد قرفاً وحيرة.

تكومت ميس بحضني متعرقة، تتمطى وتتثاءب فحملتُها الى غرفة النوم.

لم تكن نور نائمة كما ظننت. لكنها كانت عارية من أسفلها ويدها بين فخذيها والأخرى تضغط على ثديها الأيسر المصاب أيضاً وهي تتقلب على السرير ولم أسمع ما كانت تهمس به.

انتبهتْ لوجودي وكانت تزفر متعرقة تماماً وما تزال يدها بين فخذيها ورائحة جسدها تملأ الغرفة . ربما رائحة مختلطة من المني والعرق والحر والدخان والبارود والتفاح البائت وأزهار ذابلة مدعوكة على الفراش.

رفعت يدها من بين فخذيها والتفتت ببطء ولوّحت للصغيرة أن تأتي إليها فأركنتها الى جانبها وخرجتُ بقلب مضطرب ونبضي يدق.

لمحتني لبنى مخطوف الوجه ، لكنها لم تلمح جسدي المرتعش تحت بيجامتي ولا قلبي المصطفق بعنف ولا خلجاتي الداخلية وهي تهز روحي كثيراً.

- أمي مريضة؟

تساءلتْ بقلق.

- أظن ذلك .. اجلسي.

جلست وعلى وجهها ارتباك لم تقدر على إخفائه :

- أمك مريضة لكن لا أعرف مرضها.. أنت كبيرة وتفهمين.

قالت ببراءة:

- أنا منتبهة منذ كم يوم أنها منزعجة.

فركتُ أصابعي وطقطقتها بعصبية بالغة :

- ماذا لاحظتِ عليها ؟

- البقاء في غرفة النوم طويلاً حتى لو كان الجو حاراً.

- وغير هذا؟

انتبهت كما لو أنني أحقق معها فارتبكت قليلاً:

- عندما تصحو تذهب الى الحمّام وتبقى وقتاً غير قليل ثم تعود الى الفراش.

- ألا تتفقد ميس ؟

- تتفقدها وترقص معها قليلا لكنها تضجر سريعاً... أحياناً تبكي..

- وماذا بعد..؟

صفنتْ بعض الشيء . ربما تستذكر أو تحاول أن تصوغ عبارة ما لتكون واضحة:

- أحياناً تذهب الى الحديقة وتراقص الكلب .. و .. تلاعبه فترة طويلة ..حتى ..

سكتت وكمشت أصابعها بقوة :

- حتى أنّ مرتين أدخلته معها الى الحمّام..!

وسارعتْ للتوضيح :

- قالت إنها تحمّمه ..الجو لا يطاق .. وقالت إنّ الكلاب أرواح.

ألقيت نظري على النافذة التي يراقبنا الكلب منها :

- هل هذا كل شيء؟

تساءلت البنت بخوف:

- هل هذه أعراض مرضية ؟

رددت لأطمئنها:

- لالا ..أعتقد أنها تعاني من ضيق نفسي بسبب إصابتها.

ضممت لبنى وطمأنتها أنها أعراض نفسية بسبب الشظايا السابقة.

- خذي ميس وابقيها معك.

ذهبت لبنى قلقة تفرك بكفيها.

بدت لي صغيرة جداً لا تتحمل أية صدمة أخرى.

حدقتُ بنافذة الكلب وقلبي يمور ومرارة تصعد من جوفي.

عطر التفاح أو الديتول

(1)

كنت في عيادة طب نفسية بعد انتهاء الدوام.

اتصلت بنور وأخبرتها أنني حجزتُ لها رقماً عند طبيبة نفسية معروفة في بغداد.

الدكتورة تمارا، أستاذة الطب النفسي في الجامعة المستنصرية، طبيبتها في حمْل البنتين ولاشك أن لزوجتي أرشيفاً صحياً أو سجلاً أو إضبارة في أدراج العيادة.

كنت أتقصد أن أضعها أمام الأمر الواقع لتلين وتنظر الى مشكلتها بحرص أكبر، بدلاً من الاستسلام لهذه الحالة المرضية الغريبة الطافحة فيها ؛ فالأمر خرج عن لياقته كثيراً كما أحسب وتحولت حياتنا الشخصية الى قضيبٍ وفرج ولهاث وعرق وتعب وظلام وملل وتكرار وشظية وخيط دم باهت.

لم أنتبه الى العلاج النفسي المطلوب لولا أن أشار لي الأستاذ رئيس القسم أن أعالج زوجتي نفسياً قبل العلاج الجراحي. فوجدت هذا ممكناً ومطلوباً في حالة نور وتحولاتها الرهيبة لنخرج من أزمة الجنس وشظية الأزمة التي تتطور يوماً بعد آخر.

- اتركي ميس مع لبنى وأنا أنتظر في العيادة.

قالت كالمعاتِبة:

- لا أشكو من شيء يا رجل.

كمن أطمئنها أو أنني كنت مرتبكاً:

- أنا أشكو.. لا تتأخري.. أمامك ساعة.

قالت بتوسل:

- أجّل الموعد رجاءً.

- لا.

- أرجوك.

- لا تنسي أن تجلبي معك آخر تقرير جراحي وآخر نسخة شعاعية.

وفي العيادة المكتظة بالنساء كنت الرجل الوحيد مع شاب جلستُ قريباً منه.

كانت عيناه تتخاطفان بين نساءٍ مريضات ومرافقات وصبايا وأطفال يسعلون وروائح طبية مختلطة وحوامل ببطون منتفخة وعباءات إسلامية سوداء تغطي أجسادهنّ ؛ قد أسبغت على صالة العيادة لوناً كريهاً كأنهنّ جالسات في سرادق عزاء أشعرني بالضيق والنفور.

قلت ربما يتشابهنَ في المرض ما دُمنَ يتشابهن في عزاء الحياة الموحّد. فقد يكُنّ مصاباتٍ بأشلاء مفخخات وخرجن من عصف انفجارات سالمات بطريقة أو بأخرى كما زوجتي، لكن بقيت ذكرى الشظايا عالقات فيهنّ بشكلٍ قسري . تحفر بين أفخاذهن نشوة الموت المؤجل وتوتّر أعصابهنّ على مدار اليوم ، كنور التي نجت من الموت لكنها لم تنجُ من الطريقة المريرة التي هي فيها الآن.

نساء العيادة يبدون طبيعيات بلا عُقَد مرئية ،حتى خلتُ بعضهنّ- كزوجتي- شبقيات ومسعورات بالجنس والخوف، يتلذذن مع الكلاب والمخدات الناعمة وأصابع الباميا كلما أتيحت لهنّ فرصة الانفراد وخلو البيوت من الأزواج.

لعلهنّ مريضات لهذا السبب أو ذاك، أو بسبب كائنات صغيرة دخلت في أماكنهنّ الحساسة ولم تخرج حتى الآن ، فتغيرت سلوكياتهنّ وافتقدن الحشمة مع أزواجهنّ وعصف الشذوذ بهنّ الى أبعد ما يمكن أن يصل الخيال الشاذ إليه.

شيء من هذا مرّ بخاطري فأفقتُ منه على الفور، متحاشياً خيالي الجامح بأن أرى النساء كزوجتي المسكونة بشظيتها الصغيرة الوحيدة.

ندمتُ على أنني أفكر هكذا وأنا ألمح الوجوه الساكنة التي تنتظر أدوارها للدخول الى الطبيبة العجوز تمارا ، طبيبة الأسرار النفسية التي تمر بها أغلب النسوة الحوامل منهنّ والباكرات والأرامل والمطلقات وحتى العاشقات والخائنات والعاهرات.

كل شيء في العيادة ساكنٌ في ظاهره كما يبدو، لكنني لا أفترض مثل هذا كما أراه ؛ فكل امرأة تنطوي على أسرارها الشخصية المعذِبة ، وكل عباءة سوداء تخفي وراءها مأتماً وقصة حزينة وظاهرة ما ؛ ربما هي غريبة كظاهرة زوجتي التي لا يعرفها أحد سوى رئيس القسم السبعيني المحترم.

(2)

امرأة متشحة بالسواد كانت توبّخ بهدوء فتاة لا تفارق الضحكة وجهها. فتكشف عن أسنان بيض ناصعة وشفتين حمراوين جداً؛ غير أن المرأة كانت هي أيضاً تضحك بين لحظة وأخرى لكن بخفوت ، فتسحب طرفاً من عباءتها على فمها ولا تريد إظهار بعض أسنانها المقلوعة.

(3)

شاب يحتضن صبية سمراء بالغة يلتف على رأسها حجاب أسود ويضع ذراعه على كتفها كأنه يمنعها من الهرب، وكانت عيناها غير مستقرتين على حشد النسوة الجالسات . كثيرة النظر الى النافذة المطلة على الشارع العام كأنها تتوقع أن تدخل الى غرفة الطبيبة من هناك.

كان هذا إحساساً غير أكيد مني أشبه بأن أستطلع ما في دواخل النساء المتراصفات على مصاطب العيادة منتظراً

نـور التـي سـتأتي مـن دون قناعـة أكيـدة، لكنهـا سـتأتي حاملـة في داخلهـا عذابـاً لا يُحتمـل وشـيئاً صغـيراً سـيقضي عليهـا أو يدفعهـا الى الجنـون ويدفعنـي معهـا أيضـاً.

ملـتُ عـلى الشـاب في محاولـة لتبديـد الوقـت ومعرفـة مشـكلة الصبية السـمراء:

- سلامتها.

- الله يسلمك عمو.

كنـت أشـير الى الصبيـة السـمراء مسـتفسراً عـن مشـكلتها الصحيـة بطريقـة بسـيطة.

اعتدل الشاب وأمال جسده قليلاً ليكون بموازاتي.

- سلامتها !

- ما بيها شي ..!

ابتسـمتُ قليـلاً وأنـا أرى الشـاب يغلـق عـلي منافـذ الحديـث مـن دون أن يقصـده كـما حدسـت ، لكنـه اعتـدل أكـثر حريصـاً عـلى أن تبقـى ذراعـه ممـدودة عـلى كتـف البنـت:

- أختي مصابة بحالة خوف دائمة.

كنت أنظر إليها بشفقة:

- شنو أسباب الخوف ؟

- عندها فوبيا الحرب كما قالت الدكتورة تمارا في المرة السابقة.

أكمل الشاب:

- خائفة على مدار يومها وتتصور أنهم سيأخذونها ويقتلونها.

- مَن هم ..؟

نظر الشاب لي بعينين منكسرتين :

- هم ..الحرب.

تأفف الشاب من طول الانتظار وبدا أنه ضاق ذرعاً بالجلوس لكنه أبقى ذراعه ممدودة على ظهر الصبية السمراء.

قالت له شيئاً لم أتبينه وبقيت تنظر الى النافذة التي يُسمع منها أصوات الشارع وباعته وتزمير السيارات ولغط المارّة.

التفت لي بعد لحظة وقال برجاء :

- لو سمحت .. ممكن أدخل قبلك.. أختي تنرفزت ولا تطيق الانتظار.

- لا بأس ..لكنني أراها هادئة.

قال الشاب للتوضيح :

- هذا الهدوء وراءه خوف رهيب لا تراه أنتَ.. أختي وأعرفها.

لم تكن زوجتي قد جاءت بعد.

وافقت على طلب الشاب بلا تردد واستبدلت الأرقام أنا وهو وأبلغنا السكرتيرة لتثبيت الأسماء في سجلها، فشعرت أنني أسديت خدمة بسيطة للصبية السمراء الخائفة من الحرب من دون سبب أفهمه.

شكرني الشاب ثم عاد وسألني بعد فترة صمت :

- وأنت ما بك أستاذ ..!

- أنتظر زوجتي ..حجزت لها وهي في الطريق.

وكعادة الذين يُسألون في مواقف كهذه يَسألون أيضاً فضولاً أو تبديداً للوقت أو بقصد توخي تعارف بسيط :

- عفواً أستاذ .. هل زوجتك تخاف من الحرب مثل أختي ؟

- تقريباً ..لكنه خوفٌ آخر.

بقي الشاب ينظر لي وفي عينيه استفهام واضح :

- خوف بطريقة أخرى ليس مثل أختك الله يحفظها.

بدا فضوله يتجلى فأوضحت له :

- زوجتي خرجت من انفجار مفخخة بطريقة مختلفة.

توسعت عينا الشاب قليلاً منتظراً مني بعض التوضيح:

- زوجتي مصابة بشظية في مكان ما.. لذلك فهي سعيدة نسبياً..!

- ألم تقل أنها خائفة ؟

- صارت عندها مناعة قوية ضد الموت .. فصارت سعيدة تقريباً !

لا أعرف لماذا تحدثت مع الشاب بهذه الطريقة الملغزة التي لا تخلو من سخرية.

غمرني شعور بأنني أتلاعب بمشاعره أو أزيد عليه من غموض الحالة التي لا يعرف شيئاً عنها. وأظن كنت بطريقةٍ ما أسخر من نفسي. ولم أكن مرتاحاً كثيراً وحولي مظلات بائسة من العباءات السود بالوجوه الكئيبة التي زادتني كآبة.

كان الشاب يتساءل بدهشة واستغراب وصعب عليه أن يجمع «السعادة» مع «الخوف» في حالة لم يكن يتوقعها مما زادت الكثير من فضوله.

- وأين أصيبت زوجتك أستاذ ؟

لم أستكمل معه الحديث حينما دخلت نور وبيدها ظرفٌ أصفر كبير لأشعة المكان الحساس وقد سبقها عطر التفاح أو اليود أو الديتول.

وجدَتني بسهولة بين كومة النساء الكئيبات.

أفسحت لها المجال وهي تخطو مرتبكة بعض الشيء وغير مهيأة للفحص كما يبدو من هيأتها، لكنها لفتت أنظار النساء المنتظرات وأخذن يتطلعنَ إليها بفضول وبقي الشاب يتفحصها صاعداً ونازلاً بعينيه، وكانت أخته الصبية قد سحبت نظرها من النافذة واستقرت على جسد نور المستقر الى جانبي.

تلف رأسها بحجاب قرمزي لا تستسيغه كما أعرف مزاجها في حالات كهذه.

ترتدي قميصاً بلون بيجي بكمّين طويلين وتنسدل على جسدها تنورة كحلية طويلة تنتهي بحذاء أحمر بكعبٍ قصير. وعندما جلست باعدتْ ما بين ساقيها قليلاً وكانت متعرقة وضجرة جداً. تفوح من جسدها رائحة أعرفها.

بدا أنها غير مرتاحة ووجهها يعكس صيف الشارع وحرارة الجو في الخارج ، وكان الشاب يطيل النظر الى وجهها، وأظنه كان يتفحص السعادة المفترضة التي قلتها بشكل ما من دون أن أدرك ماذا سيترسخ في ذاكرة هذا الشاب الحائر بأخته الصبية السمراء. فربما كان يبحث عن الشظية أيضاً في كل مكان من جسد نور محاولاً إيجادها بحدسه، لكنني واثق بأنه لن يصل الى تلك المنطقة السرية بخياله الصغير مهما حاول.

انقطع خياله المرتبك حينما نادت السكرتيرة باسم أخته الصبية السمراء فقادها متعثراً ويده على كتفها كما لو أنها ستهرب بعد قليل.

نساء العيادة

(1)

لم تكن نور مقتنعة بالمجيء الى العيادة.

ظهر على وجهها الامتعاض غير أنها جاءت ملفوفة الرأس بحجاب قرمزي لكي أخرجها من البيت وتتنفس الشارع الذي فارقتْه طويلاً بعيداً عن يومياتها المكررة وغريزة الشظية فيها تلك التي حولتها الى كائن آخر، هكذا أبرر لنفسي مشدود الأعصاب حتى موعد دخولنا الى الدكتورة تمارا الأخصائية العجوز المتميزة بقراءة أسرار النساء ونفوسهنّ المخفية خلف الثياب والوجوه الجميلة.

(5)

ملأت مكان الشاب وأخته السمراء المرأة وفتاتها الضاحكة متحررتين من مكانهما الضيق في زاوية الصالة. فرأيت وجه الفتاة عن قرب وهو يعكس حالة مريبة من الممكن أن تكون مموهة للمرة الأولى لكن مع الوقت يمكن استدراكها بسهولة.

رائحة المرأة ريفية بعطرٍ مألوف ووجه الفتاة يشي بغموض وهي تديم الضحك لينكشف عن ميوعة ماكرة غير محببة.

نهرتهـا المـرأة الريفيـة مرتـين ثـم تأففـت وسـمعتها تقـول : الحمـد والشـكر للـه عـلى حـال.

مِلتُ على المرأة من باب الفضول:

- شبيها المحروسة ؟

قالت المرأة :

- الحمد لله رب العالمين .. هذا حظها المسكينة.

- إن شاء الله خير.

- زوجة ابني.

- الله يستر عليها.

- تضحك بلا سبب !

- ....؟

- النـاس تـصرخ حينـما يحـدث انفجـار .. لكنهـا تضحـك .. تتهسـتر .. تمـوت مـن الضحـك!

ابتسـمتُ مـن دون إرادة لكنـي تداركـت الأمـر بعـد أن رأيـت وجـه المـرأة وقـد تلبّـد بالحـزن. وكنـت أنظـر الى الفتـاة التـي تحـدق في وجهـي وتبتسـم وأسـنانها بيضـاء جميلـة.

- سـببت لنـا مشـاكل.. النـاس يتصورونهـا غـير شـكل.. مـا يعرفـون مصيبتهـا.

- سلامتها.

تتوسع الابتسامة على وجه الفتاة ثم تضحك بخفوت وهي تنظر لي وتضم رأسها على كتف المرأة التي احتضنتها كصبية خجولة.

رثيت لها فعلاً وسكتُّ لا أعرف ماذا أقول.

قالت المرأة وهي تنظر الى زوجتي المشغولة بالفايبر تحادث لبنى على ما يبدو:

- وأنت ابني .. هذي زوجتك ؟

- اي .

- شبيها الله يحفظها..؟

- شظية صغيرة باقية في ....

- وين ؟

- ... في راسها ..

- اسم الله عليها.

طال الانتظار قليلاً وبقيت زوجتي معتكفة على الفايبر مع لبنى، وحينما خرج الشاب بصحبة أخته بقيت ذراعه ممدودة على كتفها ، وحرص في اللقطة الأخيرة قبل مغادرته العيادة أن يطيل النظر الى زوجتي القرمزية ليلتقط طيفاً عابراً من السعادة التي أخبرته عنها قبل قليل.

دورة شبقية

سلمتني السكرتيرة إضبارة قديمة أخرجتْها من ملف أضابير خلفها يوم كانت زوجتي تراجع بحمْل البنتين على التوالي.

قدمتُها الى الدكتورة تمارا مشفوعة بظرف الأشعة الأصفر العريض وبعض التقارير من أكثر من مستشفى وعيادة طبية بشأن الإصابة. لكنها لم تفتحها أو تقرأ فيها غير أنها تطلعتْ إلينا من تحت نظارتها الطبية ،وابتسامة عجوز لطيفة تشفُّ في وجهها السبعيني وأناقتها الواضحة التي أعرفها عنها يوم كنت مع نور نراجعها في حَمْلي البنتين ولو على سنوات متباعدة.

تطلعت الى الاستمارة الممتلئة بالمراجعات القديمة وتركت الظرف العريض والتقرير الأخير المثبّت مع الأشعة مركونين على طاولتها ثم رفعت النظارة عن عينيها وتطلعت الى زوجتي.

- تفضلي مدام.

سكتت زوجتي ونظرت لي بإحراج وإزعاج لم تكن تخفيهما.

تدخلت بشكل أولي في محاولة توضيح سريعة :

- عفواً دكتورة . زوجتي تشكو من متاعب كثيرة.

سكتُّ وهربت مني الكلمات وضاع التعبير.

تساءلتْ :

- هل هناك حملٌ جديد ؟

- لا لا.. ولكن..

كان ارتباكي واضحاً وزوجتي مطأطئة الرأس كأنها أمام كاهنة اعتراف:

- لكنْ هناك أعراض غير سوية في سلوكها.

كنت أشعر بالغباء فعلاً وإحساس سريع يجتاحني من أنني أهين زوجتي بالتعبير غير الموفق أو أقل من شأنها من غير قصد.

- مثلا شنو ..؟

التفتُّ الى زوجتي أحثها على الكلام لكن الدكتورة تمارا تدخلت بسلاسة :

- أنت احكيلي أولاً.

بلعتُ ريقي بشعور مبالغتي في تصوري عن الحالة التي تمر بها زوجتي لكنني تشجعت:

- تعاني زوجتي من حالة جنسية غير مسبوقة !

سكتُّ قليلا وأنا ألملم الكلمات من جديد :

- يعنــي هــي الآن في دورة شــبقية غــير معهــودة في ســلوكها الجنــسي معــي.

كنت أنظر الى عيني الدكتورة تمارا وأنا أكمل :

- تحـب أن أمـارس معهـا الجنـس بطريقـة يوميـة ولأكـثر مـن مـرة.

ثم أضفت بصعوبة كأني سأختنق:

- يعني عندها استعداد أمارس معها عشر مرات كل يوم.

ظلــت عيناهــا تنظــران لي وابتســامة شــبحية عــلى وجههــا توســعت قليــلا وهــي تســألني بظرافــة :

- ألا تفرح أن لك زوجة بهذه الشهوة ؟

- هههههه

- بس قلْ ما أدبرها ..هههههههه

تلطـف الجـو وضحكنـا ثلاثتنـا وتبـدد الضيـق في داخـلي نسـبياً وعـادت الدكتـورة تطالـع الإضبـارة القديمـة وتقلّـب صفحاتهـا، وبـدا أنهـا اكتفـت بالمعلومـة المبـاشرة التـي قلتهـا بشـكل مـا لهـذا التفتـت لي وقالـت بلطافـة :

- أطلب منك أن تخرج سيدي وتبقى زوجتك معي.

أنظر الىٰ الجميع ولا أرىٰ شيئاً

أسرعتُ الى خارج العيادة مثقلاً بأعباء لا أستطيع تحديدها سوى أنّ شعوراً نما بي من أنني متحدث سيء لقضية زوجتي ولا أجيد ديبلوماسية الكلام في طرح هذه الإشكالية الجنسية المقلقة.

وقفت على الرصيف بشعور محبِط وبإحساس التجاوز غير المقصود على نور. حاولت أن أعيد حواري السريع مع الدكتورة تمارا، ممنياً نفسي أن لا أكون قد خدشتُ زوجتي بأية ملاحظة أو تعبير ليس في محله.

كان الشارع صاخباً بالسيارات ومكتظاً بالزحام ، وثمة سيارات إسعاف تتواصل وشرطة تنتشر بمسميات مختلفة في هذا القاطع الطبي في مركز العاصمة الذي شهد انفجارات سابقة غير قليلة.

كنت أنظر الى الجميع فلا أرى شيئاً محدداً.

تشتّتت عيناي في كل اتجاه بجوٍ ساخن ؛ بشر كثيرون في هذا المساء يتخاطفون من دون حذر، وسيارات مزدحمة وشارع ضيق يكتظ بها وعيادات طبية متراصفة في عمارات قديمة تتدلى شواهدها المتربة كأنها ستقع.

رصيف يشغله باعة الثياب القديمة والحلويات المكشوفة والفواكه الملمّعة ، وآخرون يتجولون بين السيارات يعرضون

قناني المياه المعدنية الباردة أو شرائح الهواتف النقالة.

اتصل بي رئيس القسم مستفسراً فأخبرته أننا في العيادة والدكتورة تمارا تستفسر من كلينا على انفراد.

« لا تخفِ شيئاً عنها فهذه الحالة غريبة جداً»

« أكيد أستاذ..»

« قل لها بوضوح كل شيء ولا تخجل وتتردد»

« اعرف شطارة الدكتورة تمارا في أمور كهذه»

« كن بخير وتحياتي الى المدام وتمنياتي لها بالسلامة»

« الله يحفظك أستاذ»

عدت الى العيادة وجَوّها الملبّد بالعباءات السود وبي كآبة أفهمها جيداً.

كانت امرأة أربعينية قد دخلت على ما يبدو وهي تحمل طفلاً بين ذراعيها وكانت تحاول أن لا ينام. فظلت تهزه وتكلمه وتتوسله أن يبقى يقظاً. وسمعتها تشرح للنساء من حولها من أن طفلها الصغير كثير الشخير كأنه عجوز بسبب انفجار صاروخ أمريكي قريب من البيت وتسبب بـ (فزّة) لصغيرها كاد فيها يختنق من الرعب وتحولت حالته مع الأيام الى شخير رجل مُسن

بدا على وجهها العبوس والخوف كثيراً وهي تحمي الطفل وتكلمه وتدعوه أن لا ينام، في حين التمت حولها العباءات

السـود يواسـينها بطريقـة تقليديـة أو مفتعلـة أو فضوليـة وهـنّ ينظـرن للطفـل بأسـف. وقتهـا وأنـا أتأمـل هـذه التجمهـر الصغـير أخبرتنـي السـكرتيرة التـي كانـت خارجـة مـن غرفـة الفحـص بـأن الدكتـورة تمـارا تطلبنـي.

كانـت زوجتـي قـد خرجـت للتـو وبيدهـا وصفـة طبيـة ووجهها جامـد لا يعـبّر عـن شيء.

أسئلة الجنس المعقدة

كان وجهُ الدكتورة تمارا يقرأ في الاستمارة القديمة لزوجتي.

خلعت نظارتها ورفعت نظرها وقال بطريقة مباشرة:

- زوجتك لديها مشاكل جراحية حساسة انعكست على نفسيتها كثيراً.

أصغيتُ بانتباه:

- لكن بودي أسألك بعض الأسئلة وأرجو أن تكون واضحاً معي.

كانت تدوّر القلم ببين يديها وعيناها ثابتتان علي:

- هل تزوجتما عن حب ؟

لم أتوقع مثل هذا السؤال لكنني أجبت ببساطة:

- كانت علاقة حب بسيطة.. إعجاب متبادل قادنا الى الزواج.

- والآن هل تحبها ؟

- أكيد .. وأكثر من السابق.

- لماذا أكثر من السابق ؟

- لأنها زوجتي.

- وهل تحبك هي ؟

- هذا أكيد.

- وهل تحبكَ هي أكثر من السابق؟

- تحبني أكيد.

- هل هنالك مشاكل بينكما حتى لو كانت بسيطة ؟

- لا أبداً ..لا أتذكر حدث مثل هذا.

أطفأت شمعة فلورسن بطول الإصبع كانت ضئيلة الإنارة على مكتبها:

- أسألك بعض الأسئلة عن علاقتكما السابقة قبل هذه الحالة التي تعاني منها.

- نعم.

- هل تستمتع معها بالجنس ؟

الى حد ما أستطيع القول أنني كنت طبيعياً مع الدكتورة تمارا وكنت أصغي الى أسئلتها بتركيز:

- نعم أستمتع.

- وهي ..؟

- تستمتع فعلاً.

- هـل هنـاك أوضـاع معينـة تمارسـانها في الجنـس؟ قصـدي هـل وضعكـما الجنـسي ثابـت أم متغـير؟

- اعتقد .. ثابت .

- يعني الوضع التقليدي؟

- بالضبط.

كانت ترسم شيئاً ما في الهواء وهي تحرّك يديها :

- ألم تحاول أن تغير وتجرّب أوضاعاً أخرى ؟

- لم أفهم .

عادت ترسم في الهواء شيئاً ما :

- أن تغير من وضعية ممارسة الجنس بينكما ؟

- بصراحة لا.

- لماذا ؟

- اعتدنا على هذا.

- هل تقبل عليها بشهوة .. أم تراه واجباً زوجياً لا أكثر ؟

- أحب زوجتي كثيراً.

- هل كانت تدعوك لممارسة الجنس أم أنت تدعوها ؟

- على الأكثر أنا.

- وهي ؟

- لا أعتقد .. تخجل كثيراً.

- هـل حـدث إن مانعـت أو تحججـت حينـما كنـت تدعوهـا للجنـس ؟

عدت أجول بذاكرتي بشكل سريع :

- عدا أيام الدورة الشهرية.

- وماذا كنت تفعل أثناء الدورة الشهرية ؟

- لا أفعل شيئاً.

- هل تتجنبها ؟

- قليلاً

- هل تشتهيها أثناء الدورة ؟

- أحياناً.

- هل تمارس الجنس مع غيرها..؟

- لا .. أبداً.

- هل ترى أن زوجتك جميلة ؟

- جميلة جداً.

- ألا تغار عليها؟

- أحبها كثيراً.

- هل تشك فيها ؟ هل راودتك أفكار من هذه سابقاً ؟

- لا أبداً.

- والآن ..؟

- لا..

قالت بحزم :

- هذه الـ لا ناقصة كما أتصور.. احكِ كل شيء يجول بخاطرك.

سكتُّ قليلا لكنني قلت كمن أشكو :

- تغـيرت في الفـترة الأخـيرة وصـارت امـرأة جنسـية تخيفنـي بصراحـة.

كانـت الدكتـورة تمـارا تـدوّن كل شيء كصحفيـة متمرسـة مـع أنهـا كانـت تنظـر في وجهـي أكـثر الوقـت.

بقي القلم يتحرك بين يديها وبدأت تسأل من جديد:

- طيـب.. ننتقـل الى جانـب آخـر.. هـل زوجتـك لديهـا مشـاكل مـع أهلهـا؟

- لا

- هل هي مستاءة من أنها لا تعمل في وظيفة ؟

- لا

- هل هي في اكتفاء مالي؟

- راتبي لها وهي التي تتصرف به.

- هل هي سعيدة مع البنتين ؟

- سعيدة جداً.

أزاحت النظارة من على عينيها وعادت تسأل:

- وما هو سبب عدم إنجابها إلا بهذا الفارق العمري الطويل بين البنتين ؟

أجبت حينما تراءت لي صورة الأمس وكأنها حدثت قبل قليل:

- أسقطتْ مرتين وتشاءمت كثيراً وكانت تقول أنها قسمة ونصيب وخافت أن تحبل من جديد. لكن البنت الثانية جاءت مصادفة لم نتوقعها.

- هل كانت تحلم أن تنجب ولداً بدلاً من البنت ؟

- لا أعتقد ..لم تذكر لي هذا.

- وأنت كنت تريد ولداً ؟

- لم أهتم للأمر كثيراً.

- هل زوجتك قنوعة ؟

- نعم

- ألم تطلب منك ما لا تتوقعه ؟

صفنت قليلا استحث ذاكرتي سريعاً لكن لم يحدث شيء وبقي رأسي مغلقاً :

- لا أبداً .. طلباتها بسيطة وبقيت مهتمة بالبنت الجامعية.

- هل ترويها بالجنس كلياً أم تكتفي بنفسك ؟

- اعتقد أننا متفاهمان في هذا الموضوع.

- طيب .. الآن ننتقل الى الفقرة التالية.

تركت القلم ووقفت كأنها تعبت من الجلوس:

- هل تشعر أن زوجتك مريضة في الفترة الأخيرة؟

- أكيد.

- وما سبب هذا الشعور ؟

هيأت نفسي لتوضيح الأمر للدكتورة تمارا :

- بعد الإصابة بدأت لديها نزعة جنسية شبقية غير طبيعية.. سابقاً كنا نكتفي بممارسة الجنس مرة واحدة كل يومين أو ثلاثة وبشكل طبيعي جداً.

كنت شديد التركيز :

- الذي حصل وعلى نحوٍ مفاجئ أنها ظلت تطلب مني ممارسة الجنس مرتين وثلاث مرات في نفس اليوم.. لم أفهم

أول الأمـر سـوى أنهـا كانـت تشـتهيني كـما تقـول وكانـت تغرينـي أكـثر.

- وكنتَ تستجيب.

- اسـتجبت في أول الأيـام . لكنـي وجـدت الأمـر غـير عـادي ومتعـب جـداً ..حتـى أننـي تحولـت مـن زوج الى مـمارِس جنـس لا أكـثر.

خطت خطوات قليلة حتى صارت أمامي:

- وما هو السبب برأيك ؟

قلت على الفور كأنني أتهم أحداً ما :

- الشظية.

- ما بها ..؟

- بقيـت شـظية صغـيرة ناعمـة في .. في بظرهـا.. يقـر الجراحـون بصعوبـة إخراجهـا لأنهـا في مـكان حسـاس ..وأيـة عمليـة جراحيـة لهـا تشـوّه المـكان وتقـضي عـلى أنوثتهـا.

نظرت لي باستعطاف أو هكذا خُيّل لي:

- وماذا تعمل الشظية الباقية .. برأيك؟

- .. تحكّهـا .. تهيجهـا .. تقـول أنهـا تتحـرك فتسـبب احتـكاكاً يثـير شـهوتها الجنسـية كل الوقـت.

- قصدك عليك أن تمارس معها كل الوقت ؟

- تمام.

سألتني وهي تسحب نظرها من الاستمارة :

- هـل تغـيرت وضعيـة المعـاشرة بينكـما ؟ هـل طـرأ شيء جديـد لم تعهـده فيهـا ؟

- نعم .. أكيد.

- احكِ لي.

جلست على كرسي أمامي فرأيت وجهها العجوز الصافي :

- بصراحــة .. لم أعتــد طيلــة ســنوات زواجنــا أن .. بصراحــة لم أعتــد أن .. أن تضــع قضيبــي في فمهــا ..!

- .....

بلعتُ ريقي وبدوت أكثر جدية لتصوير مثل تلك الوقائع:

- كانــت تحــاول أن أنتصــب.. وكنــت أخجــل ولا أطيــق هــذه الممارسـة.. كـما كانـت تسـحب يـدي الى فرجهـا لتُدخـل أصابعي بهـا ..وأكـثر مـن مـرة طلبـت .. طلبـت أن ..

عيناها واسعتان وصافيتان لم ترمشا كثيراً :

- وماذا حصل بعد هذا ؟

كنت ألهث وأنا أحكي :

- تكررت القصة أكثر من مرة .

- وما هي ملاحظاتك بعد هذه التحولات في الممارسة ؟

- لاحظـت أنهـا تترطـب سريعـاً.. بـل حتـى قبـل أن ألمسـها ..كأنهـا تتبـول تحتهـا.

بقيت تنظر برتابة الى وجهي المحتقن:

- وغير هذا ..؟

تمنيـت أن تتوقـف عـن الأسـئلة فقـد كنـت أشـعر بالإجهـاد فعـلاً :

- قصـدي أمـور صغـيرة تحـدث بـين الزوجـين .. ربمـا لم اعتـد عليهـا ولا أتوقعهـا.

كانت تهز رأسها وتمط شفتيها :

- هل حصل أن ضاجعتها كما تريد هي؟

- حصـل أكـثر مـن مـرة لكننـي تعبـت .. لا أقـدر .. أنـت تفهمين هـذا دكتـورة.. أحيانـاً أشـغل نفـسي مـع الطفلـة الصغـيرة حتـى لا تنفـرد بي في الفـراش وأحيانـاً أهجرهـا ليومـين أو ثلاثـة ثـم أقلـق وأعـود إليهـا.

- وهل تجدها بنفس الرغبة ؟

- أكثر.

- وهل بنتكم الجامعية ترى مثل هذه التحولات على أمها؟

- أعتقد.

- أكمل.

هرشتُ رأسي وتحمستُ:

- وجدتها مرة تمارس العادة السرية ..!

- .....

- مـرة أباحـت لي ابنتـي الجامعيـة أنهـا أخـذت معهـا كلبنـا الى الحـمام مرتـين .. وحمّمتـه !

- وماذا تتصور أنت ..؟

- لا أدري ..!

- أما زلت تحبها أم تشفق عليها؟

- أحبها كثيراً.

- هل تعتقد أن مرضها خطير ؟

- هذا حضرتكِ تقررينه.

- هـل تعتقـد أنهـا ستشـفى مـن هـذا الشـبق الـذي تـراه مَرَضيـاً؟

- أعتقد.

- هل تعتقد أن الشظية هي السبب ؟

- اعتقد... أكيد.

كتبت شيئاً بشكل مائل كما أرى ووضعت تحته خطاً:

- بقيت الفقرة الأخيرة سيدي.

- نعم

- أثناء ممارستكما الجنسية هل هي متفاعلة .. سابقاً وحالياً ؟

- سابقاً طبيعية جداً .. يعني متفاعلة ..أما الآن فهي تصرخ وتهذي وتتكلم أيضاً.. تقول أن الشظية تؤلمها ..تحتك بالمكان فتزيد من شهوتها.

- ماذا تقول ..بماذا تهذي .. أعطني مثالا ؟

- تقول أنها خائفة .. لكنها لا تعرف ممن هي خائفة ..تكرر بأن الشظية هي السبب.

دونت الدكتورة تمارا الكثير مما كنت أقوله على استمارة جديدة وأرفقتها بالإضبارة القديمة وكنت أشعر بأنني سخنت أكثر مما يجب.

عادت تسأل :

- هل تخيفها الحرب؟

- الشظية المتبقية هي الحرب بالنسبة لها.

أكملت الكتابة بشكل سريع ثم قالت لي:

- لا تقلق كثيراً . زوجتك تمر بأزمة نفسية محددة الإطار. سأتحقق منها بعد التحليلات التي طلبتها منها.

- هل ستشفى ؟

كان سؤالي بليداً بعض الشيء على ما يبدو :

- عليك أن تكون معها خلال هذه الفترة ولا تتركها كثيراً.

- .. وهذا الموضوع ..؟

- كن رجلها .. لا يوجد فيها مرض بايولوجي حتى الآن لكن التحليلات ستكشف هذا وتطمئننا بعيداً عن وجود الشظية فهذا أمر جراحي آخر.

- بصراحة لا أستطيع.. أنا إنسان ولستُ ماكينة !

- ما زلت شاباً وزوجتك خائفة وتفرز الكثير من الهورمونات الجنسية.

- هذا يتعبني .. ألا يوجد حل ؟

- توجد حلول كثيرة .. لننتظر تحليل الهرمونات.. ولكن أريد أن أرى زوجتك من جديد.

خرجتُ أتنفس بصعوبة كأنني خارج من محاكمة قاسية.

ودخلتْ نور غير مرتاحة كثيراً كما يشي وجهها.

وفي وقت غير متوقع اتصل بي الأستاذ رئيس القسم وسألني عن صحة المدام ، فأخبرته أننا في العيادة وننتظر إجراءات

الطبيبـة .

أخـبرني بـود مـن أنـه تـبرع بيـوم الغـد كإجـازة منـه لأبقـى في البيـت ، فـزدتُ مـن شـكري لنبلـه وأخلاقـه الحميـدة.

فتاة لا تنام

(1)

خرجتُ من العيادة معبأ بالأسئلة الثقيلة والخفيفة ، مجهداً كما لو كنت في اختبار صعب لم أكن بارعاً فيه كما أعتقد ،مع أنني لم أخفِ شيئاً عن الطبيبة العجوز وتحدثت معها من دون حذر.

الفتاة الضاحكة تملأ غرفة الانتظار بالضحك الهستيري حتى تعاونت ثلاث نساء على كبحها بالقوة ، بينما كانت تنط وتضحك وأسنانها البيضاء تلمع وسط كومة العباءات السود فأشاعت الكثير من الفوضى والضحك أيضاً.

بقيت أنظر مرتبكاً وأنا أرى الأشياء هنا تجري بعكسها تماماً ، فالحرب تصنع مساحة كبيرة للضحك وبلا حدود، كما الجنس بلا حدود، مثلما الأطفال يشخرون كالعجائز بلا حدود ، وتلك هي المفارقة التي تدهشني مثلما تخيفني وتفتح الأسئلة الصعبة التي لا أجيد إجاباتها ، سوى أنني أعاني مع زوجتي من شظية ناعمة تسبب الهيجان والفورات الجنسية التي لا تنتهي. حتى بدت لي العيادة كأنها إفرازات الحرب المختلفة تلك التي لا نراها بارزة ولا نتلمس وضوحها كما الآن ، فأيقنت بشكل مبدأي أن الحقائق هي في عيادات الأطباء وليست في قاعات المحاكم.

(2)

جلست متهالكاً بانتظار خروج زوجتي التي بلا شك بقيت تخضع لأسئلة مماثلة أو أكثر عمقاً من الأسئلة التي واجهتني، فالنساء متصالحات فيما بينهنّ ولا يخجلن من الوضوح والمباشرة في ترتيب حياتهنّ السرية.

تجلس أمامي شابّة لم أتبين وجهها الذي تديره وتتحدث مع امرأة ملفوفة بعباءة سوداء حفرت التجاعيد في وجهها كثيراً. وكان الطفل في حضن أمه يشخر بطريقة الكبار وأمه تحاول أن توقظه غير أنه بقي غاطاً بنومه وشخيره ، وكانت تشعر بالقلق ورما الخجل والإحراج أمام العيون المحدقة بها، حتى خرجت من الصالة وهي تلفه بعباءتها.

(3)

أجلس على مضض شاعراً بالتعب والإرهاق وفي داخلي تمور الكثير من الرؤى واحتمالات اليأس والخوف، فنور جوهرة البيت ونوره الساطع وإضاءاته التي لا تنتهي ، وكنت أحرص على أن تخرج من هذه الأزمة وتعود كما كانت امرأة معتدلة ونظيفة وأم بيت ساحرة بطيبتها الفطرية وتهذيبها العالي وجمال روحها.

كلمتني لبنى عبر الفايبر وكنت أطمئنها:

- ماما بخير .. لن نتأخر .. أقل من ساعة ونعود .. خذي بالك من ميس.

التفتت لي المرأة مجعّدة الوجه وسألتني بعفوية :

- إن شاء الله خير ابني.

التفتت الشابة أيضاً وكانت عيناها صغيرتين ووجهها غير طفولي كما ظننت:

- إن شاء الله .. أمور بسيطة خالتي العزيزة.

- شفتك طلعت وحدك ودخلت حُرُمتك.. خير ؟

كانت الشابة ذات العينين الصغيرتين تعتدل في جلستها:

- اي .. الدكتورة تسأل أسئلة طويلة حتى تعرف كيف تعالج المرض.

سألت المرأة بفضول معتاد في حالاتٍ كهذه:

- وشبيها الحُرمة الله يكفيها الشر.

أطالت الشابة التحديق بي :

- ما بيها شي .. شظية بـ .. براسها ..

ردت المرأة بأسف:

- الله اليستر.. إن شاء الله عندها العافية.

- الحمد لله على كل حال.

بـدا لي أن في عينـي الشـابة حمـرة خفيفـة أو هكـذا تـراءى لي تحـت ضـوء الصالـة التـي تـكاد تفـرغ مـن المريضـات:

- سلامتها..؟

دفعنــي الفضــول للســؤال وتيقنــت أن الشــابة ذات العينــين الصغيرتــين هــي المريضــة وليســت المــرأة مجعّــدة الوجــه.

قالت المرأة على الفور :

- ما خلينا طبيبة يا ابني ..حالتها شوي غريبة.

تطلعت بفضول أكثر واستطردت المرأة :

- صار ما اعرف كم سنة والبنت ما تقدر تنام ..!

تطلعت الى البنت ومن ثم المرأة مستفسراً بعينيّ :

- ما تنام !

أعــدتُ تأمــل الفتــاة مندهشــا وقلــت لهــا مبــاشرة بطريقــة الاستفســار :

- ما فهمت ..!

تدخلت الفتاة وقالت موضحة :

- ما يجيني نوم من 14 سنة !

ثم ببساطة :

- ما اقدر أنام .. ليل ونهار ما يجيني النوم !

بـدا وجههـا حزينـاً وبـدت عيناهـا أصغـر مـما رأيتهـا أول لحظـة :

- يعني ما تنامي .. ما تحلمي ؟؟

تساءلتُ ربما بغباء .

ردت المرأة المجعّدة:

- اي 14 سنة بلا نوم.

تساءلتُ باهتمام :

- شنو السبب ؟

وكنتُ أنقّل عيني بين المرأة وفتاتها.

- مِن دخلوا الأمريكان لبغداد لليوم وهي خايفة .

ردت المرأة بثقة فقلت متسائلاً من جديد :

- وشنو علاقة الأمريكان بنومها ؟

قالت المرأة :

- خايفة ..الأمريكان طلعوا وهي بقت خايفة.

ثم أكملتْ :

- كان عمرهـا صغـيراً بوقتهـا وكانـت الغـارات الجويـة والقصـف يخوّفهـا ولمـا كـبرت بقـى الخـوف بيهـا ومـا تقـدر تنـام.

كنتُ أنظر للفتاة غير النائمة بشفقة ورعب أيضاً.

خرجت نور من غرفة الدكتورة تمارا، فنهضت مرتبكاً.

كان شخير الطفل مسموعاً خارج الصالة وأمه تلوذ به من مكان الى آخر.

تحليل هورموني جديد

نهضت متذمراً مع أول الشروق بسبب انقطاع الكهرباء.

كانت نور مستيقظة تستبدل فستان نومها المبلل بالعرق بعد أن استحمّت، وكانت تعد مائدة الفطور في هذا الوقت المبكر.

عابسة قليلاً حينما خرجتُ من الحمّام مبللاً وشعري مبعثراً.

جلست على المائدة وكان الكلب ينبح عبر النافذة.

- تخلق مني مريضة.. كنتُ خجلة ومرتبكة يوم أمس.

- طوّلي بالك.. الدكتورة تمارا امرأة مثلك.

- إنزعجتُ بصراحة.. تبرر ضعفك باختلاق مرضي!

صدمتني قليلاً لكنني طمأنتها أن كل شيء على ما يرام ولا داعي للقلق.

- أنت تمرّضني بطريقتك.

- من أجلك أفعل كل شيء.

- الشظية.. سأموت من الخوف.

عندما رجعنا من العيادة ليلة أمس لم تكلمني.

كانت ضجرة ويائسة وفضّلت الاعتكاف في غرفتها من دون أن تكلم لبنى أو تهتم بالصغيرة ميس وبقيت هكذا حتى هذا الفجر.

حاولتُ بعد إن نامت البنتان ليلة أمس أن أكلمها لكنها بقيت على عبوسها وزعلها واحتقانها النفسي ،غير أنّها في هذا الفجر عادت لسلوكها الطبيعي معي، ووجدتْ في خلوتي مع الدكتورة مساء أمس تمارا مجالاً لأسئلة كثيرة في هذا الصباح:

ماذا سألتكَ .. ؟

بماذا أجبت.. ؟

ما هو تصورها عني ؟

هل تعتقد أنني مريضة ؟

هل هناك أمل بالشفاء من الشظية ؟

أنا لا أثق بعلم النفس فهو طب ساذج.

أعتقد أن المشكلة أكبر منه.

ما علاقة شظية بعلم النفس ؟

هذه حرب وانفجارات وموت.

وأنت ماذا تقول ؟

أطباء النفس مجموعة تضحك على الناس.

ما هو استنتاجك للقاء أمس ؟

ثم تستدرجني الى الفراش متلهفة كما لو أن شيئاً من داخلها يدعوها للجنس. ويدها اليمنى بين فخذيها كمن تمنع شيئاً من أن يخرج ولا تريدني أن أراه ، حتى من دون أن تسمع رأيي بأسئلتها الملحّة. لكنها بعد لحظات قصيرة غيّرت عنف الأسئلة الى رقّة أنثى تعرف ماذا تريد في هذا الصباح المبكر، وما تزال يدها تتحرك على فستانها بين فخذيها.

أنظر إليها بعطف وكانت في عينيّ عَبرات كثيرة تترقرق ولا تسقط. فنور تحولت الى نمرة لكنها ضعيفة لا تعي ماذا تفعل ، وفقدت الكثير من روحها الجميلة ذات الحياء الفطري والقروية المحببة.

أعتقد تماماً أن جسد نور خرج من قرويته المحصّنة والمقدسة الى الملأ ،حينما تناوبت عليه أيدي وعيون الجراحين والمضمدين في أكثر المناطق سرية وعفة وخجلاً وانتهكت أخلاقه السرية ، لأنني ببساطة أعرف أن الجسد هو الأخلاق ، وهذه نشأة طبيعية لا أفلسفها بقدر ما أنتمي إليها بغريزة اجتماعية لا يمكن أن أتجاوزها، ولعل نور كامرأة أكثر مني تحفظاً وتشبثاً بهذه القيمة وهذه الهوية الشخصية. لكن تبدد كل شيء الآن وانسفح الجسد كالمياه الفائضة.

- أحتاجك.

مـا يـزال وسـطها الأسـفل كثـير الرطوبـة واللزوجـة والرفيـف، مثلـما هـي لهفتهـا تتصاعـد في لـذّة عنيفـة تهـز الغرفـة كلهـا وتصطخـب أضـلاع السريـر بنـا حتـى تنطفـئ وتهـدأ وتغفـو قليـلاً وتتحـدث عـن خـوف غـير موجـود معنـا. ثـم تعـاود الرغبـة بطريقـة أكـثر لهفـةً وشـبقاً وحميميـة حتـى بـتُّ أشـعر باحتـكاك الشـظية بي عندمـا أدخلهـا مكرهـاً؛ وربمـا كنت أسـمع صـوت الاحتـكاك أيضـاً!

عينان صغيرتان تتحدثان

أهـرب الى دائـرة عمـلي عاطـلاً عـن التفكـير سـوى إدامـة الوقـت خـارج البيـت.

ألغيـتُ السـاعة الجنسـية وأخـذت أطيـل مـن تأخـري بالرغـم مـن سـخونة الجـو حتـى لا أعـود للبيـت في وقـت تتوقعنـي نـور فيـه.

تتكـرر سـاجدة موظفـة قسـم التدقيـق عـلى غرفتـي لأسـباب مختلفـة وتلاحـظ شرودي وربمـا عـدم اهتمامـي وهـي تشـكّل أنـواع القمصـان الضيقـة والبناطيـل المحسـورة عـلى جسـدها.

تكلمنـي حـول بعـض إجـراءات العمـل. وكنـت أراهـا بعينيهـا الصغيرتـين امـرأة مثـل غيرهـا. لا يفصلهـا عـن غيرهـا سـوى البناطيـل الضيقـة والقمصـان المتغـيرة ، ولعـلي كنـت أشـعر بـأن عطرهـا يتبـدل كل يـوم وكانـت حريصـة عـلى أن أشـمّه ، لكننـي كنـت أرى أن الجسـد نفسـه والتفاصيـل ذاتهـا لكـن بـلا شـظايا ولا حكّـة تقـرص مكانهـا الحسـاس.

تنظـر لي بعينيهـا الصغيرتـين فيـبرق فيهـما وميـضٌ سـاحر، فـأرى كيـان أنثـى مكتملـة لا ينقصهـا شيء سـوى حبيـب، لكـن لسـتُ أنـا بعـد فجيعـة الشـظايا التـي ألمّـت بنـور. فالجسـد آلـة في كثـير مـن الأحيـان وليـس إحساسـاً في بعـض الأحيـان. وربمـا كانـت سـاجدة تبحـث عـن الإحسـاس أو الآلـة . لا أدري. ولم أعـد قـادراً عـلى فـرز الحالـة بشـكل صحيـح.

كنـت في فـترات سـابقة أسـتلطف وجودهـا في حيـاتي الوظيفيـة، وأعتقـد كنـت أبحـث عنهـا حينـما تغيـب بشـعورٍ مـا لا أسـتطيع تشـخيصه، لكنـه ليـس شـعوراً خارقـاً تمامـاً سـوى أنـه يقـع ضمـن علاقاتنـا الوظيفيـة اليوميـة، ومـع يقينـي الشـخصي أن عينيهـا الصغيرتـين تتحدثـان معـي دائمـاً .. لكنهـما تتحدثـان حسـب.

أحكام العمر الستيني

اليوم قال رئيس القسم بما يشبه العتاب:

- أنتَ تخبّئ شيئاً عني ..!

كان صدري مخنوقاً وأشعر بالتعب الجدي. وكنت في وقت سابق قد شرحت لرئيس القسم جوهر المعاناة المشتركة مع زوجتي عندما وجدني شارد الذهن كثيراً. أتمتم مع نفسي وأكلّم أشباحاً يمرون بغرفتي الصغيرة.

أعتقد أنه لاحظ توتري الخفي لأكثر من مرة.

هذا الرجل في قلبه طيبة مفرطة لا أستطيع تجاوزها بأية حال من الأحوال.

- ربما أنا مثلك لدي مشكلة مع زوجتي .. الأمور عادية .. السنوات لها حوبة يا أخي.

لم أفهم ماذا يقصد ولم يستطع رأسي أن يفسر ما قاله.

أشعر بالحمّى وثمة ضغط يستولي علي من الجهات كلها لاسيما رأسي الذي أحسّه بليداً دونما تحليل أو تفكير كطبل فارغ.

- أعاني مثلك .. لكن لا أعرف إن كنّا بنفس المستوى من المشكلة أم لا.

قال كأنه يستكمل حكاية بيننا انقطعت منذ أيام :

- تعـرف أنّ العمـر السـتيني لـه أحـكام .في هـذا العمـر يبـدو أن المـرأة لا تستسـيغ الرجـل كثـيراً . يعنـي تصبـح محبطـة وتخـاف كثـيراً مـن أيامها.

- تخاف ..؟

- المـرأة تحسـب لليـوم الواحـد ألـف حسـاب ويعنيهـا أن تكـون بهـذا العمـر أو ذاك. لكـن الرجـل يتجـاوز عمـره و لا يأبـه لـه.

- صح .

صفن بوجهي وقال:

- زوجتـي مثـلاً يائسـة ومحبطـة وخائفـة. تعتقـد أنهـا كـبرت وصـارت غـير مرغوبـة منـي في الوقـت الـذي أتـودد كثـيراً إليهـا وأحـاول معهـا أن .. لكنهـا تمتنـع .. تخجـل مـن عريهـا الآن أمامـي.. هههههههـه

كنت أتأمل الرجل وأتساءل:

- هل هذه حالة مَرَضية أستاذ؟

- لا .. حالة نفسية تصيب المرأة التي تصل الى سن اليأس.

بقيـتُ صامتـاً أنظـر للأسـتاذ الـذي اكتـسى وجهـه بغمامـة حزينـة صغـيرة كـما أعتقـد :

- وأنــت .. مــا المشــكلة بالضبــط غــير مــا قلتــه لي ســابقاً بطريقــة غامضــة؟

وجــدتُ نفــسي أمــام الأســتاذ مخنوقــاً ؛ فالرجــل أوصــل لي مشــكلته بطريقــة سلســة وأزال الحواجــز بيننــا باحــترام ووضـوح. وكان الأسـتاذ يدخـن بشراهـة وغرفتـه مليئـة بالدخـان ولم تسـعفها المروحـة ولا جهـاز التبريـد أن تخفـف مـن رائحـة الدخــان فيهــا.

- لم أخـفِ عنـك شـيئاً أسـتاذ ومشـكلتي عكسـك بالضبـط كـما تعـرف.. صـارت مبالغـة وأكـبر مـن مشـكلة..

تأملني وهو يمتص نَفَساً من سيجارته:

- بسـبب الشـظية الباقيـة في جسـدها تغـيرت أحوالهـا الجنسـية كلها .

وأكملت بصعوبة :

- ترغب بالجنس كثيراً في اليوم الواحد.

ثم أوضحتُ :

- الشظية تسبب لها حكّة وهيجاناً في ..!

- امممم مفهوم.

ربما أدرك حجم المشكلة الآن بشكلها الأخير:

- الموضـوع ليـس جنسـاً بذاتـه أو مـن أجلـه إنمـا سـلوكها بـدأ يخيفنـي .. أخـشى أن تتمـرد.

تدخل الأستاذ بلطف :

- لا تفكـر هكـذا .. الشـك يعقّـد المشـكلة ويجعلـك إنسـاناً أنانيـاً.. زوجتـك إنسـانة رافقتـك عشريـن سـنة بحلـو الحيـاة ومُرّهـا.

قلت ببلادة :

- كانت امرأة اعتيادية طيلة أكثر من عشرين سنة.

قال بأبوّة حريصة :

- ومـا تـزال وسـتبقى الزوجـة الطبيعيـة مـا إن تتعـدّى هـذه المشـكلة وهـي ليسـت كبـيرة ولا ضخمـة تصعـب معالجتهـا.

قلت باستسلام :

- حتـى السـبب النفـسي دوّخنـي .. نحـن أسرة مسـتقرة وعنـدي بنتـان ومسـتورون والحمـد لله.

قال الأستاذ بحكمة :

- الإنسان ضعيف ..مجرد أزمة عابرة تغيّر نفسيته كلها.

ثم قال :

- في الوقـت الـذي تجـد أن زوجتـك تحتـاج الى بقائـك معهـا اتصـل بي فقـط .

وقبل أن أغلق الباب لأخرج قال لي الأستاذ :

- اسـمع .. الحـرب هـي السـبب في كل مـا يحصـل لنـا وليسـت الشـظية هـي التـي تـؤلم زوجتـك.

بوس الواوا

(1)

في الطريـق الى البيـت كنـت أفكـر أكـثر مـما يجـب وتأخـذني الوسـاوس الى متاهـات لا حـصر لهـا.

صـورٌ عجيبـة تتشـكل وتتراكـم في رأسي ليسـت معقولـة في الأحـوال كلهـا ، تفترعهـا نـور بهيأتهـا المشـعثة ورائحـة إبطهـا المختمـرة وانتفـاخ بعـض جروحهـا وخيـط الـدم الضعيـف النـازل مـن المـكان بعـد كل لقـاء قـسري، حتـى شـعرت بالإحبـاط واليـأس وداخ رأسي كثـيراً.

انغلقـت الحلـول أمامـي سـوى الحلـول الطبيـة فقـد تسـعفنا في الوقـت الضائـع وتقلّـص حجـم المشـكلة المتناميـة مـع عـدم قناعتـي بالحلـول النفسـية مثـل نـور تمامـاً، فالمشـكلة جراحيـة ؛ لكننـي التجـأت إليهـا لعـل في العـلاج فائـدة مـن جانـب آخـر لا أراه ولا أسـتوعبه بشـكل صحيـح ، وقـد لا تتفهمـه نـور أيضـاً ، لاسـيما والدكتـورة تمـارا طبيبتهـا القديمـة التـي راقبـت حمليهـا في السـنوات الماضيـة.

(2)

تعقـدت يومياتنـا بالتدريـج وصـار التفاهـم حرجـاً في هـذا الموضـوع وبقيـتْ نـور موجوعـة جسـدياً..تبكي عـلى مـدار اليوم وتتـألم وتسـتبيحها أشـباح ورؤى وخيـالات لا حـدود لهـا.

تغـير مزاجهـا ومـا تـزال تشـحب وتتبـدد طاقتهـا ويـذوب جسـدها وتتـصرف بطريقـة مثـيرة غـير واعيـة ، لتـزرع بعـض الشـكوك في داخـلي وتـصرف نظـري عن البيـت والبنتين وشـؤون العمـل في الدائـرة ،حتـى تهـاوت أوراقهـا تباعـاً وانكشـف عريها بأوسـع مـا يكـون الانكشـاف، وبقيـت مـع رائحتهـا السـفلى التـي تسـيل دبقـة وحـارّة، أعـزّي كل تصرفاتهـا الى حالتهـا المرضيـة غـير المسـيطَر عليهـا.

تعبـت مـن الجنـس القـسري وفقـدت الشـعور بـه ، فالتجـأت الى بعـض المنشّـطات الجنسـية مـن صيدليـة فيهـا شـاب ظريف دلّنـي أكـثر مـن مـرة عـلى منشـطات غـير الفياغـرا التـي ترفـع الضغـط وتسـبب خفقانـاً في القلـب. كالخرتيـت وأبـو النمـر وأبـو الكنغـر والبخّـاخ وسـائل العـذراء والعسـل الملـكي ..حتـى أشـعرتني تلـك الأسـماء والمسـميات السـوقية بهامشـيتي وسـخفي وضعفـي الإنسـاني.

(3)

كنـت أقـول أن الشـك يبـدد العلاقـات الزوجيـة ، ورئيس القسـم أشـار لي بهـذا مـن طـرف واضـح ، ونـور لا يمكـن أن أضعهـا في

موضـع كهـذا فهـي نقيـة وبيضـاء وطيبـة جـدا، لكننـي إنسـان بسـيط وضعيـف أمـام هـذه المشـكلة المعقـدة لاسـيما عندمـا تقـع في موضـوع الحيـاء والـشرف ومـا الى ذلـك.

(4)

كلـما تأخـذني الظنـون بعيـداً خـارج مـدارك سـيطرتي النفسـية أفـزع .

أرتجف

وأخاف

وأتهالك.

تصطك مفاصلي

ويرتعش قلبي

ويأخذني الخيال الى أبعد مدى من الألم القاسي.

(5)

فَلَـتَ خيـالي كثـيراً ولم أسـتطع كبحـه وأنـا في دوامـة القلـق والتحسّـب.

لم يكـن رأسي منضبطـاً حينـما خطـر لي أن الكلـب يتسـلقها في

الحـمام ولسـانه الأحمـر الطويـل يتـدلى بـين فخذيهـا بأمـل أن تتحـرك الشـظية وتخـرج مـع سـوائل مهبلهـا.

هـذا خيـال اسـتنتجته حينـما وجدتهـا تمـارس العـادة السريـة عـلى سريرنـا وتحـث الشـظية عـلى الخـروج مـن لحمتهـا المنتصبـة وهـي تـئن أو تبـكي أو تلهـث.

(6)

مـرة سـمعتها تدعـو جارنـا الى البيـت بغيـابي.. تعـالَ .. زوجـي عنّـين ولا ينتصـب.

خرجـتْ مـن البيـت منـذ أكـثر مـن سـاعة ولم تعُـدْ.. تهاتفنـي لبنـى.

لبنـى قلقـة لغيـاب أمهـا.. تقـول لي أمـي تغـيرت كثـيراً وأخـشى أن تصـاب بالجنـون.

دخلـتْ الى السـوبر ماركـت القريـب مـن البيـت ولم تخـرج إلا بصحبـة شـاب وسـيم.

أمي ترقص حتى تفقد الاحساس بكل شيء وميس خائفة.

أمي مجنونة..

(7)

يقشعر جلدي ويخفق في حنجرتي صوت معذِّب . يتحشرج ويتخربط فأستغفر الله كثيراً وأفتح عينيّ وقلبي وروحي لها محاولاً تخفيف الضغط عليها وقتل الأشباح التي تراودها في أوقات دائمة.

أعود الى طبيعتي وسجيتي في أن أتقبل الأمر وأعالجه بحكمة ودراية وعقل متقبلاً واقع الحال، أبعدُ وساوسي التي تخنقني بطريقة غير مهذبة ، وصورة نور تكبر أمامي بهذا الشذوذ لأعود مراقباً عقلي العاطل عن التفكير إلا من تفكير الشك المتنامي كثيراً في داخلي.

(8)

أدخل الى البيت فتقول لبنى أمي معها الجزّار في غرفة النوم منذ ساعتين.

تستأذنني نور لدخول قريبها الذي لم أره وتقول أنها دعته لمضاجعتها ..أنتَ زوج فاشل لا تنتصب.. اترك غيرك يزيل خوفي .. أكرهك ..الشظية تعذّبني.

يطرق علي أحدهم الباب : من فضلك أريد أن أنام مع زوجتك ومستعد أن أشبعها شهرين كاملين حتى تخرج الشظية من المكان..

يـأتي ميليشـاوي مسـلح يدفـع البـاب بعنـف ويحتضنهـا فتـذوب بـين ذراعيـه ثـم يحملهـا الى غرفـة النـوم ولا يخـرج حتـى المسـاء.

لبنى أمك مريضة.

أمي عاهرة.

استغفر الله.

مريضة وأخشى عليها من الجنون.

ضابط السيطرة المتاخمة لمنطقتنا يقضي قيلولته معها.

(9)

أهـرش رأسي وتطفـر أكـثر مـن دمعـة مـن عينـي في شـمس الظهـيرة التـي تـضرب رأسي ووجهـي فتشـعرني بـألم ودوخـة وغثيـان.

- سلامتك أخي.

ينبهنـي سـائق التاكـسي؛ فأنتبـه الى كابـوس الظهـيرة الـذي يقـودني الى الشـك وتأويـل الحالـة الى مـا لا نهايـة.

ألتفت إليه وأعتذر دامع العينين.

- تبدو مهموماً.

- لالا .. الجو حار.

- كنتَ تصرخ .

- أنا ؟؟

- أكيد .. لستُ متوهماً.

- لستُ سعيداً يا أخي.

- لديك مشكلة ؟

- لالا الحمد لله .

وكمن يلقي عليّ حكمة بايخة نسمعها كل يوم :

- الدنيا ما تسوى يا أخي عِشْ يومك.

(10)

في البيت يعلو صوت أغنية بوس الواوا من التلفاز وزوجتي ترقص بثياب ناعمة قصيرة بجسدها الفارع ، بينما ميس الصغيرة تحاول أن تقلدها لكنها تتعثر بين قدميها وتنهض وتعود للرقص الطفولي.

لبنى تراقب المشهد مبتسمة وكتابها في حضنها، ويبدو أنها لا تستطيع أن تقرأ في هذا الصخب البيتي بالفرح الصغير في واوا الصغيرة ميس فبقيتُ منتظراً انتهاء الأغنية والرقص الطفولي الصاخب.

كانت متعرقة كثيراً ولاهثة بأنفاس تعلو وتهبط حتى رمت نفسها على القنفة حينما سكت الصوت الراقص وباست الواوا بشورتها القصير، فسارعت لبنى لكتم الصوت كلياً وذهبت الى غرفتها، بينما الصغيرة تتشبث زاحفة وطالبة منها أن ترقص من جديد.

رفعت ميس وضممتها وكانت تلثغ بكلمات طفولية وجسدها يهتز كما لو تواصل الرقص بين ذراعي.

نور أم جميلة في لحظتها الراقصة العذبة التي حوّلت البيت الى فرح سريع.

جلست الى جانبها فمالت علي وقبلتني وما تزال تلهث ورائحة جسمها تفوح كالخارجة من حمّام بخاري.

- من ساعة وأنا أرقص لها.. تعبتْ ولا تريد أن تنام.

- لا يمكن للراقصة أن تشعر بالنعاس .. تمام ؟

احتضنتني وكانت ساقها العارية تطوق ساقي.

- رقصتُ كثيراً ..كنت آملة أن تزوغ الشظية أو تخرج..!

- هل كانت تتحرك ؟

- توجعني وتثيرني .. تتحرك كثيراً.

كنت جائعاً ولبنى هربت لدراستها والصغيرة كما يبدو بدأت تشعر بالتعب حين استسلمت بحضني بعد وقت قصير، فرفعتها الى غرفة لبنى وعدتُ أستبدل ملابسي.

- أشعر بضيق بعد الرقص.. تعال الى الحمام.

في الحمام كان ماء الدوش غزيراً لكنه ليس بارداً فشمس الخارج ساخنة.

كشفتْ نور جسدها الرخامي الطويل ورأيت بوضوح آثار الحرائق الصغيرة والشظايا المتفتقة باحمرار ناعم على رقبتها وثديها الأيسر وحروق بطنها وأسفل سرّتها.

اختفت معظم الشامات بين آثار الخياطة الجلدية ، وكانت مشاعر نفسية مختلطة تعقّد روحي، ولم تغادرني كوابيس التاكسي هذا اليوم كلياً غير أن رقصة الواوا أزالت شيئاً من تلك التصورات المريضة في رأسي.

كانت عيناها ترمشان وهي تقترب مني أكثر حتى لامست صدري وسحبت يدي الى صدرها الأبيض الناعم ففركت حلمتها حتى ذابت بين أصابع يدي؛ وماء الدوش يتدفق بغزارة على رأسينا.

بقينا ملتصقين فماً بفم وقتاً أحسبه طويلاً بعض الشيء.

يا عيني على بغداد

(1)

بقيتُ أحاول استثمار المتاح من الوقت لإخراج نور من سجنها الخاص وتبديد أوقاتها بالنزهات، بالرغم من حرارة الجو وسخونة العلاقة بيننا وهي تأخذ مجرىً لا أستطيع السيطرة عليه كلياً ، لكنني أحاول أن أعيد نور الى سابق وضعها، فهي نور البيت كله.

خرجنا عصراً في نزهة الى نهر دجلة.

كنت أجتهد لامتصاص تلك الرغبات القاتلة التي تداهمها دائماً وتغيّر من سلوكنا نحن الاثنين، لاسيما نور التي شحبت وفقدت بعض وزنها وبدت حزينة جداً حتى لا تستطيع أن تتصرف بجسدها بحكمة.

أعذرها بسريرتي وأشفق عليها كثيراً ،مراقباً تحولاتها السريعة من أنثى عاقلة وطيبة ومتماسكة الى أنثى فقدت غريزة التوازن المطلوبة أمام دخيل صغير في جسدها تسبب به آخر انفجار مفخخة في بغداد.

لم تكن مستعدة كلياً حين أخبرتها بضرورة تغيير جو البيت ونتعشى في مطعم على نهر دجلة. لكنني كنت مصرّاً على أن نغير الأجواء بالرغم من أنّ الجو لا يشجع كثيراً على النزهة.

وجدتْ ذريعة صغيرة فقالت :

- يبدو أنك نسيت موعد نتيجة التحليل الهورموني اليوم ؟

- تجاوزته الى الغد ..لن يؤثر بشيء.

قالت بعناد:

- أنت مقتنع بداخلك من أنني لست مريضة.

حاولتْ لبنى أن تبقى متفرغة لدراستها لكنني أقنعتها أن تكون معنا ، فميس الصغيرة متعلقة بها كثيراً وأمها ليست على ما يُرام ، كما همستُ لها بضرورة أن تكون ماما خارج البيت لتنسى شيئاً من آلام الشظية وتتنفس الحياة على نهر دجلة.

لم يكن بنطال زوجتي الكحلي ضيقاً، لكنها بالغت بكحل عينيها السوداوين فانبجس البياض فيهما مع رموشها الطويلة ، ولم تضع الحجاب على رأسها فاكتفت بتجميعه كالقبعة الصغيرة، مرتدية قميصاً أبيض فضفاضاً وحذاء أبيض بكعبٍ قصير فبدت بقامة مرصوصة لافتة. لكنها زوجتي التي أعشقها على أية حال وهي جميلة بهذا الزي أو بغيره. طويلة وفاتنة كما عهدتها منذ عشرين سنة.

(2)

أشعر بالندم لوساوس تداهمني بين فترة وأخرى حينما أهرب الى ميس الصغيرة ، تجنباً لممارسة الجنس وحكّة الشظية في مكانها الحساس التي استغرقتني ببشاعتها غير المنصفة ؛ لكنني الآن أرى نور جميلة وهادئة كما أعرفها ؛ حتى مضاجعة الظهيرة في الحمّام كانت لذيذة وممتعة وطويلة بعدما أيقنت أن رقصة الواوا التي مارستْها لساعتين حرّكت فيها شظية الحرب في ذلك المكان ، ومع أنها كانت تنتظر مضاجعة مزدوجة تحت الماء لولا أنني أظهرتُ لها قلقي بشأن لبنى فقد تأتي لأي غرض ولم تعتدْ أن تجدنا معاً في الحمّام .

كنت أهرب من المضاجعة الثانية:

- إنها شابة ومراهقة وغير صحيح أن تجدنا هنا.. في الليل نخلو لوحدنا.

(3)

تتلفت الى ساحلَي دجلة من اليمين واليسار وتتفقد البنايات والأشجار والهواء القديم ، وكان الزورق الصغير الذي تجمّعْنا فيه يشق طريقه في منتصف النهر تحت موج يتلوى كالأسماك الصغيرة وينحسر تحت القارب كلما تقدم أكثر وزاد من سرعته.

- البنايات والأشجار ذاتها.. لم يتغير شيء في بغداد.

كانت نور قد فارقت بغداد ستة أشهر في المصحات الجراحية المختلفة ، وبقيت شائطة من حروق بطنها وصدرها والشظايا التي انغرزت فيها والخِياطات الصغيرة التي عالجت ما يمكن علاجه فيها لتبقى الشظية الوحيدة هناك.

قالت وهي تتأمل جهتي بغداد من الساحلين :

- الرصافة والكرخ كما هما.

- اقتسما الانفجارات والموت بالتساوي.

قالت بحزن كأنها ترى بغداد لأول مرة :

- يا عيني على بغداد.

ترقرقت دموعها وهي تضغط على يدي وتلتصق بي ، وبشعور لا إرادي ترفع يدها اليمنى أمام وجهها كأنما هناك مَن يريد أن يصفعها. وكانت تباعد ساقيها قليلاً كما لو تريد أن تسمح لإصبعٍ صغير مدسوس بين فخذيها ليخرج مع انسدال الظلام الخفيف. وكنت أخشى احتكاك لحمها بذلك الإصبع القاسي الصغير.

انبجست أضواء كثيرة على الساحل الأيمن منعكسة من كازينوهات ومطاعم ؛ وظل رذاذ الماء يتطافر وميس ملتصقة بلبنى، فهي في أول تجربتها النهرية على نهرٍ صار ملوناً بالأضواء الكثيرة المتقافزة في النهر بعد حلول الظلام .

(4)

في المطعم المطل على النهر مباشرة لم تكن منسجمة كثيراً بعد إن غفت ميس الصغيرة في حضن أختها. لكنها بقيت ممسكة بيدي وتميل عليّ بجسدها الى حد ما كما لو تشرع أن تكلمني في أية لحظة.

كان المطعم النهري مكتظاً بالنساء والأطفال والرجال ، وثمة أراجيح وألعاب صغيرة يتبارى فيها الصغار محدثين لغطاً وأصواتاً كثيرة، بينما كانت متسولة شابة تدور بين الموائد مادّة يدها المغطاة بكف قطني أسود.

نقدتها زوجتي وهي تنظر الى وجهها الطفولي الذي كساه استعطاف واضح ، لكنها استاءت وشعرت بعدم الارتياح حينما هرع إليها عامل المطعم وسحبها من يدها بقسوة وألقاها خارج المطعم. فتمسكت بيدي كأنما عامل المطعم سيسحبها من يدها هي أيضاً ويلقيها خارج المطعم.

- مسكينة.

- بلد النفط أصبح فقيراً يعيش على الصدقات.

قالت زوجتي:

- صغيرة وحلوة .. ألا يخافون عليها وهي تتسول في الليل ؟

قلت بجدية :

- أسمع كثيراً عن مافيات للتسول نهاراً وليلاً.

- كيف يعني ؟

- مثـلا .. هـذه الصبيـة وهنـاك صبايـا أخريـات يقودهـنَ مسـتثمرون مجهولـون ويوفـرون لهـنّ الحمايـة مقابـل أجـر يومـي متفـق عليـه.

- امممممم

- في النهـار تريـن نسـاء يحملـنَ أطفـالاً تحت الشـمس السـاخنة ويتجولـنَ في تقاطعـات الشـوارع .. وهـؤلاء الأطفـال مؤجـرون مـن ذويهـم مقابـل نسـبة يوميـة.

- ألهذا الحد ..؟

- بـل سـمعت أن معظـم الأطفـال مختطفـون مـن محافظـات أخـرى.

- واو

ضغطـت عـلى يـدي فأحسسـت بارتعاشـة يدهـا، ونظـرتْ الى ميـس النائمـة في حضـن أختهـا ثـم أخـذت تتابـع أثـر المتسـولة المُبعـدة.

(5)

كلمتني عن انفجار قريب من هذا المكان حدث ذات يوم.

قالـت أنهـا تابعـت الأخبـار عنـه قبـل إصابتهـا ورأت في نـشرات

الأخبـار جثـث النسـاء والأطفـال والرجـال وأخافهـا منظـر الدمـاء الجاريـة عـلى الشـارع.

لم تشـأ أن تكمـل المناظـر الدمويـة التـي ارتسـمت بذاكرتهـا فانشـغلت بالنظـر الى النهـر الملـون بأضـواء الكازينوهـات والمطاعـم ، وتابعـت سـفينة مزوّقـة بالنيونـات والمصابيـح التـي اختلطـت فيهـا الألـوان والأضـواء ، تصطخـب منهـا أغنيـة محليـة يبثهـا مايكرفـون مركـون في أعلاهـا وهـي تفـترع النهـر مـن منتصفـه، وعـلى سـطحها مجموعـة شـباب يرقصـون بـلا نظـام ،مشـيعين الفـوضى والصخـب في النهـر، وتكـسرت الأضـواء عـلى السـاحل القريـب بفعـل الموجـات المتتاليـة التـي تُحدثهـا السـفينة المترنحـة حتـى ابتعـدت بصخبهـا وفوضاهـا كـما لـو ابتلعهـا النهـر، فعـادت شـظايا أضـواء المصابيـح المتكـسرة تلتـم وتنتظـم مـن جديـد.

مـن دجلـة كانـت تهـبّ نسـمات رطبـة محمّلـة برائحـة مـاء وأشـجار ونباتـات ودخـان غـير مـرئي.

(6)

أنهينـا وجبـة المشـاوي واحتسـينا شـاي الليـل المعمـول عـلى الفحـم ، وكانـت عينـا نـور مفضضتـين تـتراءى فيهـما شرارات الأضـواء المتصاغـرة كلوحـة صغـيرة لا تسـتقر عـلى حـال ، وعـادت يدهـا تمسـك يـدي ملتفتـة فجـأة الى أكـثر مـن مـكان ، كـما لـو هنـاك مـن لفـت الانتبـاه إليهـا أو ناداهـا بصـوت

ضعيـف، بينـما بقيـت سـاقاها منفرجتـين محاذرتـين أن تتماسّـا.

تمسـكت بي وهـي تنهـض بقامتهـا الطويلـة وألقـت نظـرة حـب عـلى ميـس الصغـيرة الغافيـة بـين ذراعـي أختهـا.

شذوذ الجسم الغريب

حاولت الاستفسار من فتاة المختبر عن النتيجة بطريقة بسيطة ، لكنها قالت بوجه محايد وهي تسلمني ورقة التحليل أن الطبيبة المختصة هي التي ستشرح لك ، مما زادني قلقاً وأنا أخطو الى العيادة بقلب مضطرب، متملياً الورقة التي احتشدت فيها فقرات مطبوعة ورموز انكليزية لا أفهمها، لكنني كنت أردد أن هذه الرموز هي التي ستحدد مصيرنا مع أنني لا أثق فيها بشعور اليأس الذي زرعته بي نور.

سلمتني فتاة العيادة استمارة زوجتي القديمة وأرفقتها بالتحليل الطبي حينما دخلت بشعور عدم الارتياح كالمتعثر في باب غرفة الطبيبة.

بقيتُ واقفاً والدكتورة تمارا تقرأ في الورقة ثم عادت تتطلع الى استمارة زوجتي القديمة.

أشارت لي بالجلوس.

رفعت عن عينيها نظّارة القراءة :

- هناك كلام علمي قد يكون صعباً أن تفهمه وآخر توجيهي بالدرجة الأساسية وسأخلط لك الحالتين لتكون على بيّنة من الموضوع.

طقطقتُ أصابعي كأنني أمام امتحان عسير:

- التحليل يشير الى أن المدام قد تضخمت عندها الهرمونات الجنسية لهذا تشعر بحاجتها الى الجنس. يعني تماماً مثلكم أنتم الرجال حين تنتصبون!

قالت ببطء كمن تريدني أن استوعب:

- المدام لديها احتقان بظري في أغلب أوقاتها فتفرز السوائل من مهبلها بطريقة غير منتظمة، وسببه وجود جسم غريب في المكان لا تستطيع أن تتآلف معه. يتحرك دائماً ويعمل عمل القضيب أو الإصبع أو أي شيء مدبب.

حاولتُ أن أعيد عليها بشكل اعتراضي:

- ولكن هذه حالة جديدة .. لم تكن سابقاً هكذا..!

- نعم .. سآتي لك بالشرح المبسّط حينما تعرف أولاً أن هناك خللاً في إفراز الهورمونات يؤدي الى احتقان في الغدة الكظرية فلا تستطيع السيطرة على نفسها ، لهذا تطلب الممارسة الدائمة وإن لم تتحقق فأنها تلجأ الى العادة السرية أو الى إدخال الأشياء المدببة. وبعض النساء الشبقات جداً يمارسن الجنس الخارجي حتى مع الحيوانات لتفريغ الشهوة ..!

قفزت صورة كلبنا الى رأسي وإشارة لبنى الى أن نور أدخلته مرتين الى الحمّام بدعوى تنظيفه.

- ولماذا يحدث كل هذا..؟

- أسباب كثيرة ..منها نفسية وعصبية تؤثر في الغدة النخامية وهذه تحث الغدد الصمّاء ذات الإفراز الداخلي على الإفراط في عملها، فتملأ الدم بهرمون المبيض فيحدث هيجان عند المرأة بسبب احتقان البظر. كما يحدث لها حساسية مفرطة في حلمات الثدي تسرّع من هيجانها الجنسي.

وجدت نفسي في متاهة علمية مشتبكة:

- لا أفهم من هذا شيئاً بصراحة .. لكن ممكن أعرف الأسباب ؟

كانت تدوّر القلم بيديها :

- أول سبب هو وجود الجسم الغريب الذي لم تعد تحتمله. وبصراحة لا تريده أن يحلّ محلّك أنت.. فهمتني ؟!

هززت رأسي وعيناي تنفتحان بينما واصلت الدكتورة تمارا:

- أما الأسباب النفسية فهي القلق المستمر ..الكآبة ..الخوف من مجهول .. فوبيا الحرب ..الشعور بالذنب بسبب الجسم الغريب الذي حلّ محلّك بقسوة. وهذا الجسم أزاح عنها فطرة الخجل وقدسية الجسد وهو أمر يعذّبها كثيراً لهذا تتشبث بك.

بقيتْ تجيل بنظرها بيني وبين المكتب:

-هناك أسباب شخصية تتداخل مع الأسباب العامة فتتأثر الغدد في المرأة ويكون إفرازها غير صحيح، مما يسبب لها

هيجاناً دائماً ينعكس على صحتها وتعاملها اليومي في البيت معك ومع بنتيها ومع محيطها بشكل عام .

قلت مستسلماً :

- لا أعرف .. حياتنا هادئة ومستقرة وزوجتي رائعة ..لكنها اختلفت في الفترة الأخيرة.

- مفهوم ..ولكن عليك أن تفهم بعض الأسباب لتسهيل العلاج النفسي قبل أن يكون طبياً.

عادت تعيد قراءة الاستمارة القديمة وملحقها المرفق معها وصرفت بعض الدقائق في القراءة والمطالعة.

استثمرت اللحظات التي تمر في القراءة فقلت لها :

- لكنها .. الشظية ..!

رفعت رأسها :

- الشظية التي تسببت بالهياج حالة جراحية لكنني أبحث عمّا وراء الشظية.. مخلفات الشظية نفسياً.. وفي هذه الحالة هناك أكثر من علاج ..أرجو أن تطوّل بالك معي لتعرف أن الجنس الشاذ كحالة المدام نور ليس مرضاً صعباً ولا يقع في باب المرض السريري إنما هو حالة نفسية تزول بزوال أسبابها.

- نعم.

- وعلينا جميعاً في مثل هذه الحالة أن لا نتهم المريض النفسي أو نعاقبه أو نضجر منه.

أوضحت بعدما وجدتني شديد التركيز:

- يعني أن لا تكون هذه الحالة مسببة لشكوك ورصد وتأويلات غير صحيحة.

- نعم.

كأنها بئر من الأسئلة عادت تنظر لي :

- أعتقد أن المدام نور تكون غير محتشمة معك في الفترة الأخيرة ؟

- بالضبط.

- سابقاً كانت تخجل !

- خجولة ومحتشمة جداً.

- والآن تطلب منك أشياء .. أنت تخجل منها مثلاً .. أو لم تتعود عليها .. أو لا ترضاها.

- صحيح

تأففت وقالت لي بما يشبه الحكمة:

- هذه هي الحرب.. تعرّينا حينما لا نكون مستعدين للعري وتنزع الخجل منّا لتكشف عن بعض ما لا يجب أن ينكشف فينا فتجعلنا نرى في الجمال قبحاً كثيراً.

وأضافت كالمتأسفة:

- في الحرب تنكشف اضطارياً الكثير من عورات الناس ويفتضح أمر المجتمع ويبدو وكأنه ليس هو لكثرة القباحات التي تظهر على سطحه.

وجدتُ أسىً كثيراً في وجهها :

- لكن لا تهتم .. إنها حالة مؤقتة وأعدكَ بأنّ كل شيء سيعود الى حالته الطبيعية.

كتبتْ شيئاً في السجل القديم الذي ينفرش أمامها ثم دفعت لي ظرف الأشعة والتقرير الأخير:

- عليك أن تكون طبيعياً جداً وتحترم شذوذها وتعتبره سلوكاً مؤقتاً.

تساءلتُ بألم كما لو أريد أن أصل الى نتيجة أخيرة:

- والممارسة الجنسية..؟

شبكت يديها ونظرت لي باهتمام :

- سأقول لك بصراحة ووضوح بأنّ اللذة ليست خطأ ولا خطيئة ولا جريمة وكما يعبّر عنها أهل الفلسفة فأنها تعطي للجسد قداسة شخصية فالجسد بلا لذة يموت، وعليك أن تعرف أن الجسد كائن حي يعيش وينمو كلما أشبعته من اللذة.

تأملتني أكثر كأنها تريد أن تعرف وقْع كلماتها علي :

- اشبع زوجتك على قدر ما تستطيع فإن عجزت وأعرف أنك ستعجز وهذه حالة طبيعية ، لكن عليك أن تأخذ بنظر الاعتبار أن المدام لا تشتهي الجنس لذاته، إنما هي متورطة بعامل غريب دخل في مكان حساس وأخذ يعمل عمل العضو الذكري لذلك تجدها على غير طبيعتها الجنسية على مدار الوقت.

كنت ألمس في صوتها نبرة غضب أو هكذا تراءى لي:

- الجأ الى تفاهمات بسيطة بينكما . جسد المدام كائن حي ولكنه الآن مريض باللذة الإجبارية. عالجه بهدوء .عالج هذه الشبق الاستثنائي المتفاقم . بمعنى اقضِ حاجتها كيفما اتفق.. فالمدام ليست فيها شهوة جنسية مستمرة ولا ترغب فيها أساساً، لكن هورموناتها زائدة عن اللزوم بسبب الجسم الغريب وحركته في المكان الحساس لهذا عليك أن تكون معها طيلة الوقت فهذا شذوذ استثنائي.

تبادلنا النظرات بغرابة.

أحسست بأن الدكتورة تمارا تخفي عني أشياء، أو ربما بقي لديها ما تريد أن تقوله.

كنت أنظر إليها وكأنني تائه، تزدحم في رأسي الكثير من الخيالات الآنية ، وأعتقد أنها رصدت قلقي لذلك نهضت ووضعت يديها على طاولتها وبدت كأنها أستاذة جامعية تلقي محاضرة:

- عليك أن تفهم يا أخي أن الإنسان بكليّته هو جسد، فأنا لا أنظر الى عقلك حينما أراك إنما الى جسدك .. وجهك ..عينيك.. انفعالاتك ..ملامحك..يعني الجسد هو العلامة الأولى التي تطلّ علي أنت أو غيرك.. هذه قصيرة .. هذا طويل.. هذا اسمر ..تلك شقراء..أنت نحيل .. الآخر متين.. وهكذا هي العلامات الأولى التي يطل بها الآخرون علينا.

اكتسب وجهها جدّية الأستاذة الجامعية وأنا أنصت إليها تماماً:

- الحياة البشرية هي مجموعات أجساد أولاً ودعك من كل شيء ، فأنا لا أراك إلا من خلال جسدك.

ما تزال واقفة وهي تتحدث بجد:

- كان جسد زوجتك معزولا عن الحياة فترة غير قصيرة مع الأدوية والضمادات والجروح والدم والحروق والخوف واليأس . بمعنى فقد وجوده الاجتماعي ولنقل الشعبي وبالتالي فقدت نكهة الحياة اليومية أشهراً غير قليلة ، وحتى يستعيد عافيته النفسية والاجتماعية علينا أن نعيد الثقة له ونعيده الى الواقع بالتدريج ، وهذا واجبك أنت كزوج بالدرجة الأولى ، وستلاحظ أن المدام تسعى الى هذا قبلك لكنها لا تستطيع بسبب مؤثر خارجي حدّ من قدرتها بالتغلب عليه.

كنت جامداً وأنا أنظر الى عينيها ووجهها الذي أفصح عن امرأة أكثر جدية من كونها طبيبة نفسية مع أنني لا استوعب الكثير مما تقوله:

- كان جسدها اجتماعياً ومقدساً لأنه جسد سري ،والمرأة أكثر من الرجل تحافظ على هذا السر، لكنه تبعثر في الانفجار وانسلخ عنه الحياء قسراً في الفحوصات والمعالجات والإسعافات والأدوية والخياطة والترميم والترقيع ،فأزالوا عنه الحشمة كثيراً أو قليلاً ، ففقد استقلاليته ليموت مؤقتاً، لهذا تناضل المدام ليبقى جسدها حياً مهما كان الثمن لأنها امرأة تعي حالتها بطريقتها الاجتماعية لكنها لا تعي فداحة الأضرار التي تَسبّب بها جسدها المشاع وهذه نصف المشكلة يا أخي..

دارت حول الطاولة وبي شعور أكيد أنها تريد أن توصل الكثير مما أجهله:

- النصف الآخر من المشكلة هو الشظية. وعليك أن تفهم أن جسد زوجتك الآن غائب. تمتصّه شظية صغيرة وتريد محوه بالكامل كفعل حربي يترك أثره بك وبها وبالأسرة كلها، ويبدو أن المدام لا تريد أن تستسلم كلياً لهذا تجدها متشبثة بك من دون أن تعرف أنك لا تعي حجم المشكلة كما أرويها لك الآن.

انتابني إحساس بالعجز وحتى الملل حينما وضعتني الدكتورة تمارا في دوائر غامضة:

- أنت تعتقد أن مشكلتها جنسية..تمام ؟

هززت رأسي ..فأكملت:

- الأمـر ليـس كذلـك .. لأنـك تنظـر الى الشـظية في المـكان الحسـاس كـما لـو أنهـا المشـكلة .. غـير أن الأمـر أبعـد مـن هـذا .إنهـا مشـكلة وجـود إنسـاني شـخصي. فجسـدها الغائـب يريـد أن يعـود الى اجتماعيتـه وقدسـيته وسريتـه لكـن تعترضـه حالـة شـاذة وهـي شـظية صغـيرة.

عـادت الى كرسـيها المتحـرك ودوّنـت جملـة سريعـة ثـم نظـرت لي :

- أخـبرك بـأن الجسـد كائـن حـي مثـلي ومثلـك وكل كائـن حـي يحتـاج الى خيـال لأسـباب مختلفـة . يريـد أن يحـلُّ في فضـاء آخـر غـير فضـاء الواقـع وهـذه حاسّـة طبيعيـة تشـترك بهـا كل البشريـة وكل الأجسـاد ، لكـن الشـظية قطعـت حبـل الخيـال عنـد زوجتـك كليـاً وحلّـت محلـة بشـكل آلي مخيـف لذلـك تراهـا ؛وأنـت تـرى أيضـاً؛ أن جسـدها صـار سـهلاً . بـلا قدسـية. بـلا احـترام. غـاب عـن حقيقتـه. مفضـوح .بـلا أسرار . صـار جنسـياً أكـثر مـن طاقتهـا. لذلـك علينـا أن نعيـده الخيـال لـه مـن جديـد ولا ننظـر إليـه كجسـد مدنّـس بالشـظية أو بالأشـياء التـي عرفتهـا منـك ومـن المـدام ، ولا ننظـر إليـه عـلى أنـه آلـة يمكـن تمريـر كل الشـحنات مـن خلالهـا ، لأن هـذا سـلوك سـيكون مرضيـاً ومسـتهلِكاً لطاقتهـا الإنسـانية مـع الوقـت.

لم أتنفـس عـلى مـا يبـدو بـل تحنطـت مصغيـاً بـكل جوارحـي مـن دون أن أقـول شـيئاً:

- عليـك أن تعـرف أن جسـد المـدام هـو هويتهـا الإنسـانية والثقافيـة والاجتماعيـة وهـو شريكهـا أينـما تذهـب ..هـل

تستطيع أن تأتيني أنت بلا جسدك ؟!

فززت كما لو أن أحداً سكب عليّ ماءً بارداً بشكل مباشر لكنني بقيت مصغياً حتى من دون أن أهزّ رأسي:

- جسد زوجتك الآن ذليل ومسكين مثل طفلٍ مشوّه. فقدَ الكثير من خصوبته وخياله وشخصيته وهويته الشعبية ، والشظية عارض لا يمكث الى الأبد .الجراحة المتقدمة تستأصلها مهما كانت صغيرة وناعمة . لكن النفس البشرية لا تعيدها الجراحة مهما بلغت من التطور والتقدم والدقة.

تبادلنا النظرات الغريبة وأنا على جمودي:

- جسد نور هو نور ..لكنها الآن بلا جسد .. بلا نور.. ليست هي .. وليس هو.

كان الجهل يطغي علي والبلادة تلجمني :

- هل لاحظتَ الآن أنه ليست هناك أزمة جسد كما تفهمه أنت.. بل أزمة وجود وكيان بشري اسمه نور تسببت به شظية صغيرة !

دمعت عيناي قليلاً وأنا أنصت لأصوات تأتيني من وراء الشظية.

كنت متضايقاً وأظن أن الوقت طال لكن الدكتورة تمارا قالت وكان صوتها أكثر هدوءاً :

- بعض علاجها النفسي أن تفهم مشكلتها أنت!

ثم قالت بأمومة :

- نساؤنا في عذاب يومي بشظية أو بلا شظية. هذا قانون الحرب الفظيع . أرجو أن نستوعب جميعنا ما آلت الحال إليه ، فداعش وماعش هم وسائل حرب عنيدة ومخيفة تريد استلاب الإنسانية من أرواحنا بكل طريقة مؤذية ، ولم ينتبه أحد الى الوسائل النفسية والإعلامية التي تمارسها هذه الجماعات الشاذة لتحنيط المجتمع وإدخاله في متاهات لا أول لها ولا آخِر.

قالت بألم :

- يريدون محونا ..محو أجسادنا وأرواحنا وهوياتنا وثقافتنا واجتماعيتنا وانسانيتنا.

توجهت صوبي وعيناها حادّتان تنظران لي بطريقة غامضة جداً وقالت بشكل استفزني كثيراً:

- أنصحكَ أنْ تُخرج الكلبَ من البيت أولاً..!

آخر مفخخة في بغداد

(1)

خرجتُ من العيادة مثقلاً بالتفاصيل التي لا أعرفها.

بصراحة لم أفهم الكثير مما قالته الدكتورة تمارا لكنني فهمتُ أنّ عبء العلاج سيقع علي وأنّ أطرد الكلب أو أبيعه أو أقتله.. هل الأمر هكذا فعلاً !

هل وجود الكلب هو ملخص ما قالته الدكتورة تمارا ؟

أم أنني أفهم الحالة بغريزة الشك التي تلازمني بين فترة وأخرى؟

أم أن الدكتورة العجوز شيطانة استثنائية وهي تحلل المشكلة بطريقة عسيرة لستُ مستعداً كثيراً على أن أفهمها كما تريد ؟

وجدتُ في هاتفي الصامت ثلاث رسائل من زوجتي.

« وين انت «

« أقلقتني»

«أنا خائفة»

لم أذهب للبيت مباشرة بل جلست في مقهى تطل على شارع واسع ودكاكين وسيارات أستعيد كل شيء بألم ،

تكتنفني الحيرة وتزيدني الشكوك قرفاً فتملأ قلبي بالرفيف المتسارع.

قفزت صورة الكلب ونباحه المستمر في النهار والليل فانتابتني معضلة الشك وخفق نبضي كثيراً.

أعدت حديث الدكتورة بالتفصيل وكنت أندهش لتدفقها وهي تحلل قيمة الجسد لدى زوجتي وتراه بمنظار دقيق غير ما أراه أنا ولا تراه نور. والجسد كما يبدو عالَم كبير لا نفهم منه سوى جماله وغريزته. لذلك بدأت أرى إلى حد مشوش فوضى زوجتي واحتباساتها الجنسية وبللها الدائم وخوفها المزمن من مجهول غير ظاهر لي سوى ما حدث.

زوجتي تعاني من شخصية موازية لها وهو جسدها.. أهكذا الأمر يا دكتورة تمارا ؟

جسدها في مشكلة فصارت هي في مشكلة.. هل أفهم هذا مثلا ؟

رئيس القسم السبعيني الذي ينظر الى قضيتي باهتمام أبوي.لكنه لا يفهم حجم القضية كما تفهمها الطبيبة وهي تفلسف الموضوع بعلمية.

موظفات الدائرة العوانس اللواتي يتهامسن ولا أعرف إنْ كنّ قد عرفنَ ورطة زوجتي وتمنينَ جزءاً من رغباتها الشاقة.

ساجدة التي تأتي إلى ذاكرتي بين فترة وأخرى بعينيها الصغيرتين وجسدها المرصوص في بناطيل متعددة. لا أعرف

مـاذا تريـد سـوى أننـي مغلـق أمامهـا ولا أدري لمـاذا.

مـرة تجاذبنـا أطـراف حديـث في كافتيريـا الدائـرة وكانـت في عينيهـا لمعـة غريبـة:

- كأنك غريب في داخلك.

- لم أفهم.

- تعيش وحدك وكأنك في عالم آخر.

- ما عندي هدف في الحياة وهذه حقيقة.

- لكن الآخرين لديهم أهداف في الحياة.

- ليسعوا الى أهدافهم.

- أشعر كما لو أنك وحيد.

- لكنني سعيد.

- لا أعتقد.

- فرضية ممكنة من وجهة نظرك.

- متأكدة.

- هل لديك أنت هدف في الحياة ؟

اشـتعلت تلـك اللمعـة الغريبـة التـي لا أنسـاها حينـما نهضـت ولم تقـل شـيئاً.

وجـدتُ نفـسي ضعيفـاً أكـثر مـما يجـب ، فاختلجـت الدمـوع بعينـيّ ، ورؤيـا نـور تطـاردني أكـثر مـن قبـل. تُماثلهـا صـورة الكلـب الـذي حمّمَتـه مرتـين كـما قالـت لبنـى. وربمـا لم تقـل لي عـن مـرّات أخريـات خوفـاً مـن أن أفكـر بشـكل سـلبي ولا تريـد أن تجعلنـي أتوجـس أكـثر مـما يجـب ، لكنهـا مـن المؤكـد كانـت تراقـب بصمـت متغـيرات حـال أمهـا التـي تفزعهـا وتتـألم بصمـت، فتحمـي ميـس الصغـيرة مـن ارتـدادات نفسـية معاكسـة لنـور التـي خرجـت عـن جسـدها كثـيراً فتحطمـت روحهـا النظيفـة بهـذه اللوثـة.

(2)

موضوعة الكلب وحدها أشعرتني بالقرف والاشمئزاز.

إنْ كان عـليّ أن أربـط اهتمامهـا بـه سـأبدو أحمـق وغـير حليـم؛ فاقـداً التركيـز عـلى حياتنـا المشـتركة ، فهـذا كلبنـا الظريـف الـذي اشـتريناه صغـيراً يـوم شـاعت السرقـات في فـوضى بغـداد بعـد الاحتـلال، فربّتـه نـور وتعبـت معـه كطفـل كان يحتـاج الى الرضاعـة والتحميـم والعنايـة والتلقيـح. لكننـي الآن أشـعر بالقـرف منـه ووشـاية لبنـى تكفـي لأن أنتبـه لسـلوك زوجتـي غـير السـوي، ومشـورة الدكتـورة تمـارا بإبعـاد الكلـب عـن البيـت لـه دلالتـه التـي لا يمكـن أن أتغـاضى عنهـا فهـي تعـرف بـلا شـك خطوطـاً سريـة قـد تلجـأ إليهـا نـور في غيابنـا عـن البيـت لأي سـبب.

احتسيتُ شاياً ثقيلاً مرتين وأعدتُ شريط تحولات زوجتي الغريب والمفاجئ. فلم أجد ما يعينني على تشكيل علاقة سببية بضوئها أرسم خطة صغيرة للقضاء على الخوف الذي يطاردها، أو الوسواس الذي يفتح المجاهيل في روحها وجسدها سوى الشظية القاهرة.

أكلُّ هذا يحدث بسبب شظية صغيرة ؟

ماذا لو استقرت فيها قذيفة كاملة ؟ ماذا يحدث؟

هههه أضحك فعلاً وأتخيل أنني أضاجع قذيفة مضطراً قد تنفجر عليّ في أية لحظة.

لكن ..أهذه هي الحرب؟ تلخصها شظية بحجم دبّوس صغير؟

أقول لنفسي هل الإنسان ضعيف ومتخاذل وحقير الى هذه الدرجة ؟

أين الجمال الذي نسمع ونقرأ عنه ؟

وكيف يمكن لمعدن صغير لا يساوي فلساً واحداً أن يغير كل هذا الجمال ويقضي على روح بيضاء ويحولها الى مشروع حيواني مخيف؟

تنتابني أحاسيس كثيرة من أن أشياء ما ستقع في بيتي، وهي أحاسيس طبيعية لرجل مثلي وجد زوجته تتحول من أنثى جميلة هادئة الى نمرة غير محتشمة تذرع البيت عارية من دون تحفظ . ترقص وتغني وتملأ البيت ضجيجاً

، وربما يضاجعها الكلب بلا حياء أو تمارس العادة السرية بشكل منفر. فاحتلّني هاجس من أنني أشعر بانقطاعي عن الآخرين وروحي تبلدت وتغيرت كثيراً وصرت لا أفكر إلا بالشظية وتداعياتها على أسرتي الصغيرة المسالمة فبقيت كثير الخوف على نور ولبنى وميس الصغيرة.

كنت أفكّر بمتنفس آخر أفتحه لأجدد الهواء الذي فسد في البيت، بعدما ضاقت حولي الحلول وآخرها حلول الدكتورة تمارا التي لم تقنعني كثيراً لأنها تضرب في الخفاء الذي لا أعرف سرياته كثيراً، أو لأني غير قادر على أن أفهم ما قالته بشكل جيد سوى أنني الحل الوحيد لمصيبة نور.

(3)

وصلتني رسالة من لبنى : أمي خرجت الى السوبر ماركت.

لبنى تمارس دور الرقيب بخوف من دون أن تدرك حجم هذه الرقابة التي تزرع بي الشكوك وتفتت أعصابي التي حوّلتني الى كائن بليد أو شبه بليد.

في التاكسي اتصلت عليها :

- نور .. وين أنت ؟

- في السوبر ماركت أشتري بعض الأغراض.

كانت قد عادت الى البيت قبلي بدقائق ورائحة الغروب

الساخن في وجهها وكان جسدها ملفوفاً بعباءة إسلامية لا تطيقها ، لكنها ترتديها لو خرجت هنا أو هناك في مشاوير صغيرة للسوبر ماركت على الأغلب. كما خرجت ذات يوم قبل ستة أشهر وانفجرت آخر سيارة مفخخة في بغداد وسببت لنا هذه المشكلة التي تبدو بحجم شظية صغيرة لكنها بحجم البلاد وحجم الحرب وحجم ألم عريض يتنامى ولا ينتهي.

وجدت الكلب يهرهر في الباب الداخلي فطردته فجأة بدلاً من محاباته كما اعتادني ، فلوى ذيله وانسلَ الى الحديقة الخلفية ووقف أمام النافذة متأهباً بعينين تنظران لي بشكل ذليل.

انفتحت العباءة عن جسدها الملفوف ببيجامة زهرية اللون.

كانت متعرقة ووجهها مضرجاً بحمرة خفيفة، وشفّت جراحها الصغيرة على عنقها المحمر.

- كنت قلقة وأخاف عليك من المفخخات.

- الوضع الآن أكثر هدوءاً وأمناً.

- فجأة ينفجر.. وهذا ما يجعلني خائفة.

- الحرب في نهاياتها وستعود الحياة كما كانت.

كانت زوجتي جميلة وأشعر أنني أحبها كثيراً. غير أن نباح الكلب الذي مدّ بوزه من النافذة أربك لحظتي البيتية

البسـيطة، فشـعرت بالقـرف.

كان لابد من إبعاد هذا الشريك غير المتوقع .

لابد من إبعاد الكلب من البيت.

لم يرسل بطلبي الأستاذ رئيس القسم ، لكنني ذهبت إليه متردداً ورغبة اللقاء به دفعتني الى مكتبه من دون أن تكون لي خطة سوى أن أقضي بعض الوقت في غرفته الدخانية.

أعتقد كانت بي حاجة لأن أتحدث معه فهو الوحيد الذي اطّلع على حجم مشكلتنا.

لم يكن مشغولاً كما توقعت بل قال أنه كان يود أن يطلبني بعد قليل.

- طمّني كيف حال المدام .. ماذا كانت النتيجة؟

ترك الإضبارة التي كان يقرأ بها.

- الحمد لله .. لا توجد أعراض مرضية ..سوى أن الشغلة حالة نفسية متوسعة أكثر من اللزوم.

- وما عرفت الأسباب ؟

كان يدخّن ويتلوى الدخان حول وجهه كأشباح صغيرة:

- حكت لي الطبيبة كثيراً عن مشاكل في هرموناتها الجنسية الفائضة وقالت أن سببها خوف مجهول وقلق واكتئاب وقالت الحالة طبيعية وعليّ أن أكون معها دائماً.

كانت عينا الأستاذ تدمعان لكثافة الدخان العابر عليهما:

- وموضوع الجنس .. ما حدثتكَ عنه ؟

- أكيـد .. طلبـت منـي أن أكـون معهـا وأعطتنـي توجيهـات بسـيطة.

وأضفت على مضض :

- أوصت لي بالمنشطات الجنسية كحل مؤقت.

كنت أشعر بتعب جدي :

- وأهـم مـا قالتـه غـير التعامـل المبـاشر جنسـياً هـو أن أبعـد الكلـب عـن البيـت..!

نظر لي بعينين مستفهمتين فلم يسمع هذا مني من قبل.

أوضحتُ باختصار:

- لدينا كلب بوليسي ربّته زوجتي وهو صغير حتى كبر ..!

بقي الأستاذ ساكتاً ينتظرني:

- تقـول الدكتـورة تمـارا مـا معنـاه أنـه في حـالات الشـذوذ القصـوى لـدى المـرأة فأنهـا قـد تلجـأ الى الحيوانـات لتمريـر شـهوتها..!

وأضفت مقللاً من أهمية ذلك :

- كنوع احترازي لا أكثر ولا أقل أن نبعد الكلب من البيت.

حاولت أن أغير الحديث وأبعد هذه الفقرة المقرفة ، فأنا أثق بفهم الأستاذ لكل ما أقوله وأعرف لمّاحيته الشخصية في اقتناص ما وراء الإشارات فتساءلت بشكل طبيعي ما دمنا قد تصارحنا بود:

- وأنت أستاذ .. هل هناك مستَجَد في قضيتك ؟

ابتسم وهو يطفئ سيجارته:

- لا .. نفس الطاس ونفس الحمّام.

قلتُ من باب أن نكون على المستوى نفسه من القلق:

- أنا وأنت متعاكسان في المشكلة.

بقي صافناً ينظر لي وعيناه تدمعان من كثرة الدخان الذي يحيط بهما لكنه قال فجأة :

- أخرج الكلب من البيت يا أخي.

فهمت أم لم أفهم.

لكن القرار جاهز مع أنني كنت أشعر بالإحراج من قصة الكلب الذي داهم شكوكي الصغيرة واحتلها بطريقة غريبة.

سألته سؤالاً مفاجئاً ولا أعرف لماذا:

- ألا تشتاق للجنس أستاذ ..؟

كانت على وجهه ابتسامة عريضة :

- أشـتاق طبعـاً .. لكننـي بصراحـة أتعامـل مـع زوجتـي بحـب وكـما تريـد.

لم أفهم .

ربما كنت أظن أن الجنس هو الحب وأنّ الجسد هو الحب.

- امـرأة السـتين هـي غيرهـا امـرأة الثلاثـين والأربعـين.. هـذا العمـر حسـاس جـداً.. سـتون سـنة للمـرأة يعنـي أنهـا عـلى أعتـاب الفنـاء والمـوت والخـلاص فـلا يشـغلها الجنـس بـل تشـغلها الحيـاة التـي هـي فيهـا.

لم أفهم أيضاً وكنت أود أن لا يحدثني الأستاذ بالألغاز.

قد يكون ذهني مشتتاً كثيراً لكنني استدركتُ:

- الجنس علامة من علامات استمرارية الحياة .. تمام أستاذ؟

- تمام ..وصح جداً.

تساءلتُ أيضاً :

- ألا تستوعب زوجتك هذه المعادلة ؟

ابتلع نَفَسَاً طويلاً من سيجارته :

- أنا وأنت في نقطتين متعاكستين من هذه الفقرة الحياتية.

تهيّأ لأن يشرح لي:

- أنـت في وضـع جنـسي مفتـوح وأنـا عكسـك تمامـاً مـع أننـا في زمـن واحـد وهـو زمـن الحـرب ومـا تفـرزه مـن تبعـات نفسـية ثقيلـة عـلى الحيـاة كلهـا.

كنت أنصت للأستاذ وهو يبرر بحماسة:

- المـرأة العراقيـة تحملـت الكثـير مـن الأورام الوطنيـة جسـدتها الحـروب مـن أربعـة عقـود تقريبـاً وبالتـالي وقعـت عليهـا أدوار متعـددة أكـثر مـن طاقتهـا النفسـية والروحيـة والجسـمانية ، لكنهـا واصلـت الحيـاة بالرغـم مـن كل الرعـب والقتـل والمـوت الـذي خلفتـه الحـروب والطائفيـة السياسـية.

كنـت أبحـث عـن نقطـة معينـة في حديـث الرجـل الـذي يواصـل بجديـة :

- زوجتـك ضحيـة الحـرب وزوجتـي مثلهـا . زوجتـك أصابتهـا شـظايا بانفجـار مفخخـة وزوجتـي لم يصبهـا شيء حتـى اللحظـة . لكـن حينـما تقـرأ الجـو النفـسي للزوجتـين سـتجده واحـداً في القهـر والاسـتلاب والمظلوميـة والأعبـاء المتراكمـة.

كنت أنظر للأستاذ وأنا أهدأ وأركز معه :

- جـو الحـرب ليـس عـادلاً كـما تعـرف . وبلـدان الحـروب تكـثر فيهـا العاهـات والأورام المجتمعيـة المتعـددة وحـالات الخـوف والجـزع واليـأس والوسـاوس القهريـة ، لذلـك فزوجتـي مثـلاً انعكسـت فيهـا كل تلـك الأورام الخبيثـة مـن دون أن تشـعر، وبالتـالي تبـدل سـلوكها منـذ وقـت طويـل وظلـت تنظـر الى الجنـس عـلى أنـه ليـس اسـتمرارية عـلى الحيـاة بـل اقتنـاص

فرصة سريعة في الحياة ثم ينطفئ بعده كل شيء وتعود تلك الأورام لتجتاحها من جديد.

أرّث سيجارة ثانية من رأس السيجارة الأولى :

- أما زوجتك يا صديقي فقد انعكست الحالة فيها .. فبسبب شظية صغيرة لا قيمة لها تحولت حياتها الى مرض جنسي ومزاج لم تكن فيه سابقاً وحياة بدأت تضيق عليها تسببت به تلك الشظية وبقيت تفعل فعلاً مضاداً لرغبتها، وهذا الفعل الإجباري ظل يقرر رغبتها ويستفز مكانها الحساس كل لحظة فأنشأ علاقته الضدية معها بالرغم منها لهذا افترقت عن زوجتي كثيراً.

كان الأستاذ معقولاً وصريحاً وواضحاً هذه المرة :

- واحدة تهرب من الجنس لأنه اقتناص فرصة سخيفة كما ترى وواحدة تركض وراء الجنس من دون رغبتها لأن شظية لا تساوي فلساً توطّنت في منطقة حساسة وأخذت تستفزها حتى بدأت تكره الجنس كزوجتي .. وأنا متأكد من ذلك.

بقيت صامتاً أنظر الى وجهه المنفعل قليلاً وهو يعبُّ الكثير من الدخان :

- زوجتي مريضة مثل زوجتك.

كان ينظر لي بألم أو إشفاق ..لا أدري بالضبط:

- زوجتي بلا شظية وزوجتك بشظية صغيرة ..هذا هو الفرق يا صديقي.

أنا الكلب

(1)

أبـدّدُ الوقـتَ كيفـما اتفـق وأهـرب مـن مسـاحة ضيقـة لا أريـد أن أكـون فيهـا كالعضـو العاطـل، فقـد تشـتت مزاجـي وتعكرت روحـي وعينـاي لا تفارقانهـا سراً وعلانيـة حتـى لـو هربـتُ الى مـا بعـد نـور، فـما مـن وطـنٍ صغـير يجمـع أشـلائي غيرهـا ومـا مـن امـرأة تحفـر الكثـير مـن جمالهـا في أركاني كلهـا وتجمّلنـي معهـا سـواها.

اكسـب الوقـت مـع ميـس الصغـيرة وقتـاً طويـلاً نملأ فيـه الصالة لعبـاً وفـوضى ومرحـاً وابتـكارات صوتيـة طفوليـة، أنسـاها مـع الوقـت حتـى تتعـب وتنعـس وتنـام في حضنـي. وفي العـادة ينقطـع التيـار الكهربـائي فتخـرج لبنـى وتحمـل ميـس بحـب كـما لـو هـي ابنتهـا.

يحـدث هـذا دائمـاً كلـما أجـد نفـسي هاربـاً مـن سـطوة الجسـد ورائحتـه المتخاذلـة فألجـأ الى كل مـا يبعـدني عـن وسـواس الجسـد وشـظيته القاتلة.كأننـي أرى آخـرَ يسـير مـع نـور ويلتصـق بهـا ولا تسـتطيع إبعـاده عنهـا.

نـور بـين المطبـخ والصالـة ورائحـة شـواء سـمك تثـير الشـهية في ظهـيرة الجمعـة التـي تجمعنـا عـادة مـن دون تأخـيرات الـدوام والمواصـلات ، وكان نبـاح الكلـب في الحديقـة الخلفيـة يقرفنـي ويثـير بي الغـيرة الى حـد أضحـك فيـه عـلى نفـسي أحيانـاً، غـير

أنني كنت عازماً على طرده ، فلم يعد وجوده مجدياً بضوء الشكوك التي تحتل مساحة واسعة من تفكيري.

كنت حائراً في كيفية إخبارها وإقناعها بضرورة إبعاد الكلب عن البيت لاسيما وهي التي رافقته وأطعمته صغيراً حتى كبر .

قلت لنور بهدوء:

- برأيك هل نبعد الكلب عن البيت ؟

- اي . أفضل.

أجابت بسرعة وكأنها كانت تنتظر هذا أو كانت تفكر في كيفية إبعاد الكلب لسبب ما أظنه يتعلق بوجوده قريباً منها،أو لسبب غامض غير قادر على فهمه في اللحظة ذاتها. مستعيداً ما قالته لبنى ذات يوم من أنها حمّمَته مرتين ولم تقل غير هذا مرة أخرى، ولا أعرف كم مرة حمّمته بغيابي وغياب البنت في الجامعة وهذه بذرة شك لا أستطيع التخلص منها كلما حاولت نسيان الكلب.

كانت في عينيها التماعات وومضات أعتقد كنت قادراً على فهمها من خلال إجابتها المبتسرة. لكن ذلك آلمني بعض الشيء ووطّن بي قرفاً وشكوكاً قد لا تكون في محلها.

كنت أشعر بالذنب حينما أرى نور في محنتها العجيبة.

(2)

في المطبخ تهيئ السمكة المشوية وتوزع على جوانبها الخضار والسلطة والخبز الحار والشطة والبصل.

تساءلت بشيء متناقض عمّا قالته قبل قليل :

- وماذا فعل هذا المسكين حتى نتخلص منه ؟

كنت أوضح لها بلا قناعة :

- قرفت منه .. وسخ.. ينبح كثيراً ..أزعج الجيران.

لم تلتفت لي وكانت تتنقل في فضاء المطبخ تعد المائدة السمكية بهدوء وتوزع الصحون الصغيرة عليها.

- كما تريد.

- يعني أنت موافقة ؟

كان سؤالي بليداً جداً.

هزت رأسها من دون اهتمام وأكملت نصب المائدة.

ظلت عيناي حائرتين بينها وبين الكلب الذي مدّ بوزه من النافذة الخلفية وبرقت عيناه بلمعة غريبة. ليشعرني بأننا أحياناً نرتكب حماقات صغيرة بسبب شكوك لا معنى لها أو خيالات جامحة تطوف قلقة لا تستقر على حالٍ واحدة ، وتلك هي المسافة القلقة التي أصابتني بالعمى وجعلتني أتخبط قليلاً أو كثيراً؛ لكن ما حدث كان يجب أن يحدث

بشأن الكلب الذي أبعدته أو أهديته في اليوم ذاته الى بيت أحد الأقارب بذرائع مختلفة غير أنني لم أشعر براحة ضمير طيلة الأيام التي أعقبت إبعاد الكلب. مستشعراً بارتكاب حماقة لا داعي لها ؛ لكنْ تذرعت بوصية الدكتورة تمارا فهي الأدرى بالحالة الباطنية التي فيها زوجتي وما يشكله الكلب من ضرر لا أعرفه بالضبط، لكن أدركه بحساسية الشك الزوجي حينما يسرح عقلي ويستشيط وهو يستحدث صوراً كلبية مُخلّة ربما لا رصيد لها في الواقع.

الفراغ الذي تركه في الحديقة الخلفية واضح ، ولعلني افتقدتُ نباحه ووقْع خطواته التي تذرع الحديقة الخلفية بلا ملل. وربما غمزني شعور بأنني أصبحت عنيفاً عندما أعيد سيرة الكلب كما لو أعيد سيرة طفل فقدناه، وأراه من جديد يوم كان كائناً بيننا منذ صغره . أرضعته زوجتي الحليب كطفل مدلل حتى شبّ وصار حارساً لا نستغني عنه في ظروف كثيرة مرت في منطقتنا من السرقات الصغيرة والكبيرة والاختطافات وتهديد الأسر المسالمة من عصابات مراهقين ومحترفي جريمة ؛ يومها شاع شراء الكلاب البوليسية بأسعارٍ ليست رخيصة حينما انفلت المجتمع وخرج قاعُهُ الوسخ، فباتت أيامنا البغدادية في قلق؛ خائفين على مدار الأيام وغير مهيأين لأي احتمال يعصف بنا ؛ لكنني الآن أستغني عنه ببساطة وأبعده وأجد الأسباب كما لو كان شريكاً ينافسني، فزوجتي هي سرّة الأسرة وجمالها ولا نحتاج كلباً يبدد سكون حياتنا في نزوات غير واعية وشكوك لم أعدْ أحتملها.

(3)

في الليل أتحسس جسدها المرتعش المبلل من الأسفل فيخترقني نباح الكلب المُبعَد. وحينما أدفن رأسي في صدرها يدق نبضها المتواصل في رأسي .نبض ساخن لا يهدأ بل يزداد ويتسارع حتى كأنه كرات نارية ستخرج من أضلاعها وتحرقنا.

تتأوه وتقول أشياء غريبة لا أستطيع الانتباه لها سوى شعوري بأنها خائفة من شيء أخاله مراتٍ كما لو أنه سيخرج من فرجها أو صدرها أو شفتيها، فتربك لحظتي التي أستعد لها قبل أن يخذلني عضوي، ولولا شاب الصيدلية الذي أراجعه في فترات متباعدة ثم متقاربة لكنتُ في مواقف صعبة ومخجلة كثيرة.

أتعرق وأتألم وأحاول من جديد منصهراً مع جسدها الذي تحول الى كتلة نارية تنفث رائحة برية متكررة في مثل هذه اللحظات الحميمة وتغرقني فيها بالقوة ؛ وهي رائحة لا أستطيع تحديدها حتى على وجه التقريب سوى أنها رائحة جسدها المضرّج بالعرق والشبق والديتول والبارود القديم؛ فأبقى محموماً لا أقوى على شيء سوى أن أتحسس فخذيها الصلبتين المحترقتين وأقرص لحمهما ، ثم تتدرج أصابعي الى بللها في تلك المغارة الناعمة الفائضة بالزبد وينغرز إصبعي الوسطي هناك ؛حتى ترفس وتتقلب عاصرة بين فخذيها اصبعي وهي تزفر زفرة اللذة الأخيرة حتى خالجني شعور سريع وخاطف من أنني أصبحتُ أنا الكلب.

أشباح مع نور

(1)

ازدادت الأمور سوءاً.

تحولتُ الى كائن لا معنى له ولا أقوى على فعل شيء.

ضعيف وبائس ويائس ومسكين وحزين ورأسي مفرّغ من كل طاقة ، حتى بتُّ لا أستطيع التفكير بحل أخير ينقذ بيتي من هذه الورطة الغريبة التي صارت تفوح منها رائحة العرق والمني والحمّام والعطور الدخيلة والحبوب الجنسية متعددة الألوان والحجوم والعيارات.

لا يمكن أن أفهم الجسد إلا لكونه غريزة ولا أستطيع أن أفهم بشكل جدي ما قالته طبيبتها العجوز وهي تزرع في رأسي كائناً آخر يصاحب زوجتي ويربطها به، لاسيما وأنها بقيت في حالة نفسية لا تُحسد عليها ؛ تتعقد يوماً بعد يوم ؛ وتحولتْ الى كائن شهواني فظيع لا تستطيع أن تصمد بجسدها غير ساعات قليلة ثم تعوي وتبكي وتنادي أشباحاً الى غرفة النوم وتفتح ساقيها كالعاهرات. حتى خلتُ أن هناك من يعوي في داخلها وليست هي؛ وهناك من يريد مضاجعتها لكنها تهرب لي، وهناك من يعاقبها فتصرخ مستنجدة بي.

أسَرّتني لبنى وهي تنشج :

- أمي أصبحت غريبة الأطوار.. لا تتصرف بعقل !

أضم البنت الى صدري وأنشج معها وأقول لها :

- ستشفى ..الشظية تؤلمها كثيراً..لا تقلقي.

تجلس نور أو تنام مفتوحة الساقين مبللةٌ من أسفلها برائحة أخذتُ أبتعد عنها، فلقد عرفت روائحها اليومية ولم يعد وجودي العاطل ينفعها ، حتى أصابعي ذبلت وأصبحت لا تستقيم في فرجها المسلوخ وهي تنوء كالهرّة أو تعوي كالكلبة وتصدر أصواتاً غريبة كما لو تخرج من فرجها السائل. وأن عين الديك فيها قد ذبلت تماماً.

بقيت تصارع رغبة قردية لم تعدْ تخفيها مثلما أرى قرف روحها من هذا الهوس الجنسي الذي أتعبها وأحالها الى كائن ضامر لا يقوى على صدّه وردعه.

كانت تناديني وقلبها منقبض وجسدها منهار ووجهها ضعيف وشاحب.

- أخرج الشظية فأنها تقتلني .. جسدي يؤلمني ..سأموت.

تبكي بمرارة وتتشبث بي كطفلة تهرب من أشباح تطاردها وأبكي معها، ولبنى تنتحب صامتة في غرفتها ومهتمة بميس الصغيرة بشكل طارئ حتى تركت دراستها أياماً كثيرة.

أضمها بحنان وحب وأجهش معها ، فأشعر بكياني الضعيف المستلَب جداً الذي لا يعرف ماذا يفعل وزوجته تنهار بسبب جسم غريب التحم في مكان حساس وتعاشق فيه

وصـار جـزءاً منـه كـشيء سـام لا يمكـن التخلـص منـه.

تتعرّى في الصالة وتدعوني الى الفراش بلا تحفظ من لبنى.

- خذني .. خذ الشظية واطلق سراحي. بدأتُ أكره نفسي.

- اهدئي .. طوّلي بالك نور.

بدأت تكره نفسها حقاً.

افتقـدت الحيـاء كثـيراً وكان سـلوكها مخيفـاً ولبنـى مـا تـزال طفلــة لا تقــوى عــلى شيء، بــل تبــكي كثــيراً وتُبعــد ميــس الصغـيرة عنهـا وتنتظـر أي شيء يخلصنـا مـن هـذه الكارثـة التـي داهمـت بيتنـا بطريقـة عجيبـة لا يمكـن لأحـد أن يتوقعهـا أو يتصورهـا حتـى في الخيـال.

- بابا ..عالج أمي.

ابكي مع لبنى بألم.

أشـعر أن هيبتـي الأبويـة تبـددت كثـيراً في هـذا الضعـف الـذي لازمني.

في لحظات الهدوء القليلة أضم نور وأشمها كثيراً:

- حالتـك مـو طبيعيـة .. نراجـع اخصائيـاً جراحيـاً لعلـه يفعـل شـيئاً.

(2)

عاتبتني مرة واحدة بسبب إبعادي الكلب عن البيت.

قالت أنها تحنُّ إليه وأنه كلب مدلل افتقدته وأنه لا يزال يعوي في رأسها.

كانت لبنى تبكي بدلاً من أن تدرس وتلتجئ لي :

- ماذا بها أمي ؟

بينما الصغيرة ميس تبكي على مدار الوقت والمخاط يملأ أنفها وثيابها.

رأيتها أكثر من مرة تنظر لأمها بعينين صغيرتين مليئتين بالدهشة والسؤال، فتحملها نور وتبكي بروح يائسة حتى تفرّ الصغيرة منها مذعورة الى ذراعَي لبنى.

- علم النفس يفشل في علاجك.. الجراحة هي الحل.

- كل شيء في الوطن فاشل ..لا ترهق نفسك.

تقول ذلك بألم وتكمل بوجه ذابل جداً :

- الحرب .. ليوقفوا الحرب وستختفي الأمراض والشظايا.

تهمس بعينين مخذولتين غارقتين بالدموع :

- تعبت.. وأنتَ تعبت معي ولبنى وميس.

أرد بحماسة :

- أنت نور البيت كله . لا تفكري هكذا.. المهم علاجك.

- أنا كئيبة ويائسة.. هناك شيء بي يجعلني لا أشفى.

- علينا أن نلجأ الى الجراحة بدلاً من علم النفس.

- الحرب ..إنها المرض الكبير فينا. لا تنفع الجراحة ولا علم النفس.

تتحدث أحياناً بذهنٍ صافٍ كأنها تعي حالتها وتراجع نفسها وتفكر بشكل سليم، وفي كثير من الأحيان ينحسر رأسها بين ساقيها ، فلا ترى سوى ذلك العبء السفلي الذي يفرز السوائل والروائح والرغبات والهستيريا الجنسية غير المنضبطة ، فتديم ذاك الحك المضني بشكل سافر في البيت أو خارجه ، بدلاً من أن تضم ساقيها وتقبض على عضوها في السرير وتفركه لترتاح شظيتها المدفونة في لحمتها ، حتى أنهكتْ جسدها وشحبت كثيراً وأهملتْ نفسها واستولت عليها الكآبة بشكل فظيع ، أخافني وأثار بي الرعب من أن نور قد تفعل أي شيء يُسكت ألمها السفلي.

(3)

بقيت لبنى في نفير يومي تراقب أمها وتسعى الى تهدئتها ومعاونتها؛ لصيقةً بها؛ ويبدو أنها عرفت الحكاية كلها. لهذا كنتُ أرى الرعب على وجهها وأقرأه في عينيها وأتلمسه في روحها البريئة ، متيقناً من أنها كوّنت فكرة أخيرة عن

رغبـات أمهـا التـي ضخّمتهـا الشـظية الشـيطانية المتبقيـة. وبـدأت تفهـم معانـاة الجسـد ككائـن حـي لـه افرازاتـه ومشـاكله وحميمياتـه وشـيطنته أيضـاً.

بقيـت تهلـوس مـع أشـباح يأتـون الى مخدعها ليلاً أو نهـاراً حتى بوجـودي الهامـشي ، حينـما فقـدتُ الانتصـاب وكرهـت الجسـد وبـدأت رائحـة كل امـرأة تذلنـي، مراقبـاً نـور بخيالهـا الفائـق وهـي تولـج أصابعهـا في المـكان وتحـكي مـع أزواجٍ وعشـاقٍ وهميـين، حتـى يكـف جسـدها عـن الارتعـاش ويخفـت لهيـب الشـظية التـي مكثـت في ذلـك المـكان السـحري الحسـاس.

لم تهـدأ بعـد في مناوبـة يوميـة مريـرة أكلـت في روحهـا النظيفـة حتـى تحولـت الى هيـكل امـرأة تبـكي في كثـيرٍ مـن الأوقـات؛ فأبـكي معهـا متصاغـراً وكارهـاً لنفـسي أمـام ضعفـي كلـما كانـت في وضـع حـرج.

تعبـت مـن ملاحقتهـا وعرضـت عليهـا أن نذهـب الى جرّاحـين آخريـن لعلهـم قـادرون عـلى إيجـاد حـل لهـذه الشـظية الملعونـة.

لم تحفـل بنـداءاتي وكانـت سـاهمة وأصبحـت امـرأة أخـرى ونسـيت كل حياتهـا السـابقة عـلى مـا يبـدو، فـازدادت كآبتهـا وتعبـتْ مـن الجنـس والعـادة السريـة وإدخـال الأشـياء المدببـة في المـكان وبقيـت الشـظية في موضعهـا تزيدها شـهوةً مضاعفة.

كانت نور أنثى ثانية .. وكنت أشعر بالخطر.

قد تنتحر نور

(1)

تحاشيتُ الكثيرين من زملاء وزميلات العمل.

لا أشعر بصلةٍ بأحد.

ظل وجودي صورياً في يوميات الوظيفة.

لا رأس يفكر لي ولا عاطفة تسيّرني الى هدف آخر.

موظفة التدقيق ساجدة حاولت أكثر من مرة أن تقترب لكنها وجدتني مغلقاً كحائط وكنت أشعر بالأسى والخجل منها.

ما تزال عيناها صغيرتين وبنطالها ضيقاً . نفس الجسد الذي يغوينا في انحباساته وخطوطه المثيرة، لكنّ شظية بحجم رأس الدبوس تحيله الى كتلة حيوانية شرهة مقرفة.

أشعر بالحزن لموظفة التدقيق ساجدة التي تلاحقني منذ زمن طويل من دون أسباب تقنعني.

هذه المرة وجدتني لأكثر من مرة بأنني لست على ما يرام وكان وجهي بليداً ، مقفلاً كصندوق العجائز.

شاحب من القلق والسهر والتفكير الذي لازمني منذ فترة غير قصيرة وأحالني الى كتلة بشرية تمشي على قدمين ،

بـرأس تائـه ونظـرات عميـاء وروح منقبضـة. أسـتنجد بحبّـات الفياغـرا المتفرقـة والسـياليس والحبّـة المباركـة والأزرق والأصفـر لأصبـح منتصبـاً بـلا شـهوة مـن أجـل تمريـر شـهوة زوجتـي نـور التـي لا أفـرّط بهـا.

حوّلنـي الصـداع النصفـي الى نصـف آلـة تمـر بالجسـد والنصـف الآخـر غائـب في مـكان لا أعرفـه. وبـدأت أعـاني مـن ارتفـاع الضغـط وضبـاب في العينـين وتعـب في المفاصـل وخفقـان في القلـب لا يهـدأ كثـيراً ؛ فكرهـت الجسـد وكرهـت هـذا الـدور الـذي أمارسـه وكنـت أشـفق عـلى نـور وأخـاف عليهـا كثـيراً وهـي تتضـاءل كأنثـى وتتضـاءل شـهيتها الى الحيـاة. وبـدت سـاجدة موظفـة التدقيـق كمانيكانـة عـذراء لا روح فيهـا سـوى جسـد يتخاطـر أمامـي ببنطـال كاوبـوي يضيـق في كل مـرة.

(2)

يطلبنـي رئيـس القسـم كأنـه يـواسي حالتـه المعكوسـة مـع زوجتـه التـي تشـعر أنهـا كـبرت ولا تحتـاج الى الرجـل. فبقـي الأسـتاذ السـبعيني مـن دون حـل ولا أعـرف مـاذا يفعـل ولم تظهـر إشـاعة في الدائـرة عـن علاقـات لـه بهـذه أو تلـك مـن الموظفـات الأرامـل أو العوانـس في الدائـرة، فهـو إنسـان منضبط الى آخـر درجـة ولا أعتقـد أنـه في يـوم يمكـن أن يخطـو خطـوة تشـير بعـدم الحشـمة إليـه.

كنت أرى حلوله لي ضعيفة وأغلبها نظرية فالواقع غير ذلك تماماً وكان اليأس يجتاحني حتى آخر نقطة في كل احتمال سليم أضعه ليفشل في النهاية .

حارَ الأستاذ معي ، لكنه لم يُظهر قلقه كثيراً وأنا أرسم له ملامح الحالة بشكلها الذي وصلنا اليه.

- أخشى أن تنتحر .. لم تعدْ تحتمل ألمها الجنسي..!

كأي رجل عاقل ومتفائل وطيب يبعد عني مثل هذه التصورات المجنونة ويمنح وجودي الكثير من الأمل حتى لو كان ذلك نظرياً. فأشعر معه بأنه يمكن أن يكون هناك حل .. ولكن كيف؟

يقول أنّ هناك وقتاً جيداً للعلاج وعليّ أن لا أقلق وأن لا أضخّم الحالة أكثر مما هي فيها، لكن بقيتُ أعتقد أنّ كل وقت يمر هو ترسيخ لمرضها وحالتها المملة الغريبة التي لا يشجع الجراحون على استئصال الشظية لحساسية المكان واحتمالية تشويهه وتأثيراته المضاعفة على أنوثة نور وإنجابها اللاحق.

يتصل الأستاذ بأكثر من صديق له ويدوّن أسماء جرّاحين في مختلف مناطق بغداد ، وكان الرجل مهتماً للأمر كثيراً حتى نتفق أنا وهو على جرّاح مشهور ونتصل بسكرتيرته ونحجز موعداً بعد عشرين يوماً.

لا أستطيع أن أبوح لأحد بهذه المصيبة وتوسيع تداولها بين الموظفين والموظفات بالرغم من الشرود الذي يلاحقني

في العمل وتكرار الإجازات المتتالية وبعض الغيابات الاضطرارية، وهو ما أثار انتباه الكثيرين والكثيرات لاسيما موظفة التدقيق ساجدة التي تراقبني كما يبدو. فكنتُ أشعر بالخوف والخجل وربما العار لهذه الحالة الشاذة والغريبة التي لا تحدث كثيراً.

اتصلت بي لبنى وقالت أنها لم تذهب الى الجامعة :

- أمي تبكي كثيراً.

في الأيام الماضية كنت منتبهاً الى أنها صارت ضعيفة وغير جميلة، وبرزت وجنتاها كثيراً ولاح اصفرار في وجهها ونحول عام في جسدها الأبيض، حتى برزت بعض الجروح بشكل نتوءات صغيرة.

رجعت الى البيت محموماً وكانت نور ذابلة بعينين خفقت الدموع فيهما وتحجرتا وبدا أنها خائفة ولا تستطيع أن تفعل شيئاً.

كانت نحيفة وذابلة وقد فقدت الكثير من حيويتها ونضارة وجهها وكانت تباعِد ساقيها كأنها تنتظر ولادة جنين ولو بحجم الشظية لترتاح من عبئه المثير.

ضممتها وبستها على رأسها، وكانت لبنى تجهش وهي تبعد الصغيرة ميس عن حلقتنا الموتورة، وبقيت دامع العينين متشبثاً بنور بكل الحب الذي أمتلكه وبكل العطف الذي تولّد من هذه المحنة الغريبة التي داهمت بيتي الصغير.

في ردهة الطوارئ

(1)

حمل الصباح المبكر صوت انفجار ليس بعيداً وأنا ذاهب الى عملي بعد إجازة قسرية ليومين.

جفلت وتخيلت حجم الشظايا المتطايرة في المكان والدخان الساخن الذي سيحاصر الناس ، مثلما تخيلت الأماكن التي ستستقر فيها بين أجساد النساء ، ولَكَم آلمني هذا الخيال الحساس الذي سيفضح عري الزوجات والصبايا والموظفات المبكرات الى أعمالهنّ.

تعكّر الصباح بأصوات سيارات الإسعاف والزحام المتوقع والفوضى المرورية التي تزيد من عبء الشوارع وتفتح جروح الآخرين في يوم سيكتنفه الغموض والألم، ففضلت المشي الطويل بدلاً من المضي في فوضى الشوارع أذرعُ الأزقة الداخلية ؛ متحاشياً الزحام واكتظاظ الشوارع بالسيارات، فثمة خوفٌ غريزي ترسخ فينا عبر السنوات الماضية من هذه التجمعات القسرية التي يُحتمل أن تكون فخاً لسيارات مفخخة أخرى أو لانتحاريين يندسون بين الناس ليوسّعوا من حجم الفجيعة وهذا ما حصل أكثر من مرة.

أخذني رأسي في الأزقة بعيداً في مراجعة مشكلة بحجم ضحية بشرية أو بحجم شظية لا تساوي فلساً واحداً أوصلت تلك الضحية الى ما وصلت إليه.

(2)

مـا حصـل لنـور ذات صبـاح في موقـف مثـل هـذا الـذي حـدث قبـل قليـل يـوم ذهبـتْ للتسـوق قبـل سـتة أشـهر ولم تعـد، حتـى وجدتهـا مصادفـة بـين جرحـى مشـوهين بالحـروق والجـروح ومـوتى مقطّعـي الأوصـال.

وقتهـا لم أعـرف أن نـور سـلبتها عاصفـة الانفجـار وتناثـرت في جسـدها الأبيـض شـظايا ومسـامير وفتيـت حـصى وشرائـح زجاج صغـيرة ولـوّث البـارود روحهـا البيضـاء ، حتـى عـثرت عليهـا في أحـد المستشـفيات وكنـت مختنـق الأنفـاس، أبـكي ضائعـاً في حقيقـة واحـدة ورهيبـة، هـي أن هـذا البلـد كلـه مسـكون بالرعـب والمـوت وضحيـة إرهـاب وطائفيـة بـين انفجـارٍ وآخـر ومـوت وآخـر.

كنـتُ أقبـل بـكل احتـمال إلا أن تكـون نـور قـد فارقـت الحيـاة وأن موتهـا مشـوّه جـداً، وكان هـذا يسـتفزني ويفـكك روحـي ويشـل تفكـيري وأنـا أبحـث في ثلاجات الموتى مرتعشـاً ومسـكوناً بالمـوت مثلهـا ؛عـن جسـد أبيـض مـليء بالعطـر والجـمال والفطـرة والطفولـة والقرويـة ، حتـى رأيـتُ مـا لم أره كل حيـاتي مـن مـوت سريـع ومجـاني في أجسـاد قسـمتها الشـظايا الى أنصـاف وأربـاع وأحالتهـا الحـروق الى أكـوام مـن اللحـم الأسـود بطريقـة بشـعة لا نظـير لهـا ؛ كنـت فيهـا أبـكي متوقعـاً أن أجـد جسـدها قـد تفحّـم هـو أيضـاً وأكلتـه نـار المفخخـة العميـاء ؛ غـير أننـي وجـدتُ نـور بعـد نهـارٍ صيفـي طويـل مـن البحـث والبـكاء والخـوف.

دلّني عليها صبي كان يبحث في ثلاجات الموتى عن أخته الصغيرة التي كانت ضحية الانفجار ذاته.

قادني الى ردهة طويلة اكتظت فيها رائحة الأدوية والضمادات والدماء والحروق والصراخ والأنين.

قال لي : امرأة طويلة بيضاء تبحث عنك.

وماذا قالت ؟

قالت أنها تريدك أن تحضر.

وأين هي الآن؟

في ردهة الطوارئ.

يعني أنها لم تمت ؟

لم تمت يا عم حتى الآن.

اسمها نور..؟

قالت أنّ اسمها نور.

هرعت الى نور وكان الصبي دليلي العابر في تلك المحرقة الجبارة ، متعثراً بين الجثث الميتة والحية والأجساد المتصارعة بين الموت والحياة والحروق التي انطفأت فيها النار حتى وجدتها مرمية على سرير وسخ.

كانت حلوة بالرغم من جراحها الكثيرة في ردهة الطوارئ.

كانت حيّة ولم تمت. لكنها معفّرة بالبارود والتراب والدخان ولطخات دم تحيط بها من كل جانب.

ثيابها ممزقة تحت بطانية ممزقة وعريها مفتوح ومفضوح بلا شك كأنما أنثى غيرها تقمصت شكلها ولونها.

لم تكن فاقدة وعيها لأنها بقيت حيّة تنتظرني.

نور لا تموت بهذه الطريقة البشعة ولا يمكن أن يندحر الجمال بمثل هذه الوحشية التي ضربتها ، بل رأيتها تدير وجهها بين لحظة وأخرى كما لو أنها تبحث عني أو عن لبنى أو ميس وعيناها تدوران في المكان.

كانت تبحث عني من دون غيري فهي تعرف أنني أحبها حد العبادة ولا يمكن أن لا أكون معها في محنة الموت المباغت ، فنور تعرف أنني بلا وجودها أصبح كائناً لا معنى له في الحياة.

الحب وحده يجعلنا هكذا نتبادل أدوار الحياة فيما بيننا مهما كانت وتحت أي ظرف سيء.

نور..

كان لقاءً بين الحياة والموت نسيت فيه كل شيء وأصبحتُ وحدي إلا منها.

ارتميت عليها أبكي كأنني أريد أن أستبدل مكانها وأكون أنا الجريح ممزق الجسد والمعفّر بالتراب والبارود.

وددت لـو أكـون تاريخهـا منـذ هـذه اللحظـة الجريحـة وأخـرج منـي إليهـا وأكونهـا متعفـراً مثلهـا وجريحـاً مثلهـا.

نور..

كنت أنادي وأبكي وأصرخ وأشتم الحرب وألعنها.

كانت نور حيّة لكنها تتألم.

اسـتباحتها الحـرب في كل مـكان مـن جسـدها العفيـف حتـى اكتشـفوا أنهـا لوثتهـا في منطقتهـا الحـرام ولوثـت عفّتهـا لاحقـاً.

كان يومـاً داميـاً قضيتـه أحتضنهـا وأرتعـش وأبـكي وأسـاعد الممرضـات والممرضـين بنـزع الشـظايا البـارزة في بطنهـا وصدرها كـما لـو أنـزع أضلاعهـا الرقيقـة، وكانـت نـور تبـكي وهـي عارية بجسـدها الأبيـض العظيـم.

(3)

نبهتني دراجة بخارية زاعقة.

خطفتنـي وأنـا مثقـل بالهواجـس أسـيرَ ذهـنٍ مشـتت ورأس صـار بحجـم جبـل مخـذولاً وفي رأسي كل نـور بـكل تحولاتهـا الفجائعيـة.

يحـدث أن أصرخ وأنـا أمـشي سـاهماً ، ثـم أعيـد ترتيـب نفـسي حينـما أنتبـه الى وجـودي في أي مـكان أكـون فيـه ، كـما نبهتنـي الدراجـة البخاريـة التـي خطفتنـي قبـل قليـل وانتشـلتني مـن

رائحة النار والدخان ونور الجريحة ذات يوم في ردهة الطوارئ.

دائرة عملي تغير اتجاهها أكثر من مرة ؛ فالأزقة قادتني الى أزقة أخرى وهذه رمت بي الى تقاطعات وشوارع ضيقة نهاياتها محجوزة بكتل كونكريتية، وأصوات سيارات الإسعاف تتابعني.

بعض الشباب العائدين من الانفجار الصباحي يبشرون الأهالي بأن الانفجار سببه قنبلة صوتية كانت موضوعة في حاوية نفايات ولم يسقط جرحى أو قتلى.

أشعر بطيف صغير من الفرح من أنّ أحداً لم يمت في هذا الصباح وأن الحياة تسير على صفيحة بغدادية ساخنة.

أقول لنفسي بأن المفخخة التي نالت من روح نور وجسدها هي آخر مفخخة في بغداد لتجعلني تعيساً قبل أن تنتهي الحرب الى الأبد. ولتكن نور آخر علامة جريحة في هذه المدينة التي تموت ببطء وتحيا ببطء.

(4)

أيقظتُ نفسي قليلاً منتبهاً الى أنني وصلت دائرتي بتأخير ساعة تقريباً.

لم يطلبني الأستاذ رئيس القسم بل ذهبت إليه وفي رأسي تدور أفكارٌ كثيرة ، فوضعي النفسي مرتبك هذا الصباح

وصـورة نـور المجهـدة والخائفـة تطالعنـي أينـما حللـت.

أعـترف أن الخـوف مـن المجهـول ظـل يوطّـن القلـق بي ويبـدد أمنيتـي بـأن تتعـافى زوجتـي وتعـود سـيدة البيـت وطفلتـه الوديعـة.

طمأنني رئيس القسم :

- الدكتـور أنمـار جـراح اختصـاص معـروف في العـراق حصلـت عـلى رقـم هاتـف عيادتـه وحجـزت لـك موعـداً.

قلت له مستسلماً :

- لا بأس .. تعقدت المشكلة أستاذ.

- طوّل بالك.. لا مشكلة بلا حل.

كنت كطفل حائر :

- خائـف مـن التبعـات .. نـور تتـآكل وتنحـف.. ضعفـت وقـلّ وزنهـا وصـارت تبـكي كثـيراً.

نقـرَ أرقـام هاتـف مسـجلة عـلى دفـتر ملاحظـات أمامـه وتكلـم مـع سـكرتيرة الطبيـب الجـرّاح طالبـاً تقديـم الموعـد السـابق لمريضـة حالتهـا غـير طبيعيـة كـما أخـبر السـكرتيرة.

هـزّ رأسـه وأنصـت وبقـي ينقـر عـلى الورقـة التـي أمامـه ثـم التفـت لي مسـتفسراً عـن اسـم زوجتـي الكامـل، بعدهـا شـكر الطـرف الآخـر وقـال لي:

- أقرب موعد هو الأسبوع المقبل في مثل هذا اليوم ..هذا أقصى ما يمكنها أن تساعدنا به.

انحنيتُ على رأسي أعصره بيديّ كأنني أستخرج منه شظايا منسية .

ربت الأستاذ على كتفي بمواساة حقيقية ودسّ في جيبي رزمة نقدية حمراء سميكة وهو يتمتم:

- قد تحتاجها.. ثق ستكون العملية الجراحية ناجحة إن شاء الله وتتخلص من كل الوساوس وتعود زوجتك الى وضعها الطبيعي.. أسبوع واحد فقط.

اليوم الأول

قالت نور وهي تحاول أن تتذكر:

- منذ سنوات عديدة لم أزرْ حديقة الزوراء.

- كل البغداديين لهم ذكريات في هذا المكان.

كانت لبنى تحمل ميس الصغيرة وهي تقطف لها بعض الأزهار وتعمل لها باقة ملونة وتمشي أمامنا.

يد نور بيدي باردة كحمامة هادئة. وكان الجو ساخناً على غير العادة.

امتصّنا الفضاء الأخضر في الأشجار العالية التي شكّلت ظلالها حواجز مشتبكة وبقينا نلوذ تحته تفادياً لحرارة الجو بالرغم من الغروب الذي سينسدل بعد قليل.

ما تزال الأشجار ذاتها التي رأيتها قبل عقدين تقريباً وقد هرمت كثيراً ولا أتذكر آخر مرة كنت هنا ، فقد يكون ذلك أيام الدراسة الجامعية قبل أكثر من عشرين سنة. ومثلي نور على ما أعتقد إذ لا أتذكر مرة أنها تحدثت عنها منذ سنوات طويلة.

كانت تبدو هادئة وهي تخطو متطلعة الى كل شيء كأنما ترى حديقة العاصمة لأول مرة ، ولم يلحظ أحد انفراج ساقيها قليلاً إلا أنا.

أخبرتها بطريقة مباشرة:

- في مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل سنكون في عيادة الدكتور أنمار أحد الجرّاحين الاختصاصيين.

التفتت لي وكانت عيناها ذابلتين نسبياً ولم تضع مساحيق تجميل على وجهها فزاد ذلك من شحوبها.

كانت حزينة بطريقة ما.

- هذا طبيب جرّاح معروف في بغداد.

- لا فائدة.

قالت بيأس وبدت تعيسة جداً.

- سيقضي على شظيتك الملعونة.

مصرٌّ على أن أبعث الأمل فيها بالرغم من أنني وجدت في وجهها اشمئزازاً.

صمتت ولم تقل شيئاً غير أنني واصلت:

- ربما ستكون الأمور على ما يرام.

بقيت صامتة وطيف كآبة يَسِمُ وجهها.

أعدتُ عليها ما أقوله لها دائماً:

- ما علينا إلا أن نراجع الجراحين الأخصائيين وأن لا نترك شظية صغيرة تحطّم حياتنا.

ضغطت على يدي بقوة :

- لابـد مـن حـل .. المسـألة لـن تكـون صعبـة إن شـاء اللـه.. لا تقلقـي.

جلسـنا عـلى مصطبـة قريبـة مـن أقفـاص القـرود التـي يتجمهـر حولهـا كثـيرٌ مـن الأطفـال والشـباب والنسـاء، وكانـت ميـس الصغـيرة تكمـش ورود صفـراء وهـي سـعيدة ، فيـما بـدت لبنـى متذمـرة قليـلاً ، فهـي فتـاة يعـزُّ عليهـا أن تـترك مذاكرتهـا لدروسـها في معظـم الأوقـات وتعـدّ مثـل هـذه النزهـات نوعـاً مـن تضييـع الوقـت عليهـا.

لاحظـت نـور متوتـرة بعـض الـشيء وهـي تنظـر الى القـرود المشاكسـة بـلا انجـذاب أو دهشـة صغـيرة.

قالت كما لو تريد أن تبعد شبح الجراحة عن ذاكرتها:

- أعتقد كانت الزوراء معسكراً للجيش سابقاً.

- صح وكانوا يسمونه معكسر الوشاش في العهد الملكي.

تمتمت هازئة :

- حتى حدائقنا فيها رائحة العسكر ؟؟

اليوم الثاني

طـال انقطـاع الكهربـاء وبقـي الجـو كئيبـاً وسـاخناً بحـرارة مرتفعـة. فيـما كانـت نـور منشـغلة في الظـلام الـذي تنـيره بعـض مصابيـح الشـحن بلميـس الصغـيرة التـي بقيـت تبـكي عـلى مـدار الوقـت ولم تفلـح جهودهـا بتهدئتهـا حتـى أدخلتهـا معهـا الى الحـمّام وهـي تتمتـم :

- البنت لا تتحمل الحر.

خفـق قلبـي وراودتنـي ظنـون طارئـة فناديـت عـلى لبنـى أن تحمـم البنـت بـدلاً مـن أمهـا ، غـير أن نـور كانـت عاريـة في الحـمّام هـي ولميـس الصغـيرة ، فعـادت لبنـى تتأفـف وجلسـت في زاويـة ليـس فيهـا ضـوء كثـير وكانـت مثـل شـبح ينتظـر شـيئاً مـا.

- هل من جديد ؟

كانت لبنى متعكرة المزاج منذ بضعة أيام :

- نفس الحالة.

- وماذا تفعل في معظم وقتها ؟

- في الفترة الأخيرة تبكي كثيراً.

أحسست أنها مختنقة فجلست الى جوارها وضممتها:

- لا تقلقي .. سينتهي كل شيء قريباً.

- لماذا حدث كل هذا..؟

- هذا قدرنا ..شظية صغيرة غيّرت حياتنا.

تساءلتْ :

- أهذه هي الحرب؟

اختنقت بكلماتي :

- ربما شظية صغيرة هي كل الحرب.

ضممتُ لبنى أكثر.

كان جسدها يرتعش وأخذتْ تنشج بصمت ولم أملك القوة الكافية لأن أضبط أعصابي فنشجت معها.

لقد أصبحتُ ضعيفاً أكثر مما يجب، مكتظ الرأس بكوابيس مخيفة واحتمالات تثير أعصابي بطريقة مباشرة وأنا أرى نور تذوب كشمعة ولحمتها منتصبة طوال الوقت تبرر لها الشهوة الحارقة.

أرى أنني نحيل بعض الشيء.

قلّ وزني أكيد. وصداع يشرخ رأسي في الأيام الأخيرة.

اليوم الثالث

لعبنا أنا ونور مع ميس أكثر من ساعة.

كانت نور طفلة هي أيضاً حينما تنغمر في هذه الطفولة التي جاءتنا متأخرة ، وحينما تصحو من مشكلتها المؤرقة بعض الوقت تجد نفسها الطفلة القديمة التي كانتها يوماً ما.

أنظرُ الى وجهها الشاحب محتدماً بالخوف والأسى وتلازمني رهبة بأنني سأفقد نور بسبب تلك الشظية التي اختارت المكان الخطأ في الوقت الخطأ والزمن الخطأ ، لكنني بقيت أرى فيها تلك الزوجة الجميلة التي لم يخبُ فيها نور الحياة والجمال ، بالرغم مما هي فيه من أسى ضرب مكانها الحساس وأحالها الى كتلة شبق اضطرارية في حكّة تهيّج فيها كل شيء. بل ضرب روحها الصغيرة وحوّلها الى كائن ليس بإمكانه أن يضبط حواسّه وتصرفاته ومزاجه.

أمس رصدتها تبكي بصمت.

لبنى أطلعتني على أنها تبكي دائماً لاسيما بغيابي.

تقول أنها كثيرة الدخول للحمام .. بسبب الحر؛ فالبنت لابد وأنها أدركت حجم الرعب الذي يسكن أمها ، لكنها لا تريد أن تصدق أنها تعرف فتغض النظر وتشغل نفسها بالمذاكرة أو تقضي الوقت مع ميس الصغيرة، وكنت أدرك

تماماً أنها لا تستوعب ما تذاكره من دروس في الأيام الأخيرة.

ميس التي جاءت بوقت متأخر كانت علاجاً ظريفاً لحياتنا الأربعينية، وكان يمكن أن تكون أكثر ظرافةً وجمالاً، لولا مصيبة الشظية التي كشفتها التصاوير الشعاعية فائقة الدقة التي طالت جسد نور.

نور طفلة جميلة أموت حباً بها ، لكنني بدأت أخاف عليها وأشفق على حالتها التي تزداد سوءاً مع رغباتها القسرية التي تعبت من معالجتها بالنكاح اليومي، فتركتها تمارس العادة السرية بصراحة، أو تعمل ما تشاء لتسكت تلك الصرخات المكبوتة التي تعذبها وتحيلها الى كائن آخر لا قدرة لها على ضبط النفس أمام الهيجان الذي يضرب روحها وجسدها ، حتى نحفت كثيراً وشحب وجهها وازدادت عتمةً بقع الشظايا المنزوعة من بطنها وربما سواداً ، حتى رأيت مرة ضمور عضلات بطنها واختفاء شاماتها بشكل جعلني أتأسف لضمور هذا الجمال الذي أعشقه برغبة استمرت عشرين عاماً.

اليوم الرابع

كمحاولة أخيرة لمعالجة ما يمكن معالجته من خراب، ولو بعد فوات الأوان ، أرشدني الصيدلي الشاب الذي صار يعرف حاجتي الى حبوب الـ«ساماگرا» بعدما وطّدتُ علاقتي به خلال المدة الأخيرة وهيأت نفسي لأكون قضيباً على مدار اليوم حتى موعدنا مع الجرّاح ، متحاشياً أن يسألني من باب الفضول أو حتى التوجيه. وكنت أقرأ في ملامح وجهه رغبة تشتد دائماً حينما أدخل صيدليته، طالباً بخجل حبوب الفياغرا الهندية لأنها الأرخص سعراً أو السياليس المصرية أو الأعشاب الصينية غير المتوفرة دائماً أو البخّاخ الموضعي الذي يسبب حرقة في المكان أو حبوب النمر والأسد والكنغر والخرتيت والأخضر، غير أنه في هذه المرة وبطريقة مهذبة وجّهني الى الـ ساماگرا وقال أنها صناعة عراقية جيدة وليس فيها تبعات جانبية ولا تسبب ارتفاع الضغط ، والحبة الواحدة تطيل الانتصاب لساعات كثيرة.

كنت أتوقع أن يسألني الصيدلي عندما وجدني أسعى بين الحين والآخر لطلب أنواع الحبوب والمنشطات الجنسية التي تساعد على الانتصاب من دون مضاعفات جانبية ، لكنه اكتفى كدليل الى هذا النوع العراقي الجديد مؤكداً سهولته وفعاليته ورخص ثمنه. فلم أقل شيئاً وأنا أقرأ التعليمات السريعة على حافة العلبة وأعيد قراءتها أكثر من مرة.

- لا أود أن أسـألك عـن خصوصياتـك أسـتاذ .. لكنـك مـا تـزال شـاباً ,, عفـواً عـلى السـؤال.

لم أقل شيئاً .

أعتقـد كنـتُ شـاحباً كـما ينعكـس وجهـي في عينيـه فابتسـمتُ في وجهـه متمتـماً :

- إنها الحرب أيها الشاب.

أخـذت العلبـة رخيصـة الثمـن وخرجـتُ مـن دون أن أفكـر بـشيء.

اليوم الخامس

تتلوى على الفراش وتنشج بقهر ويدها اليمنى مضغوطة بين فخذيها كأنها تحبسها قسراً، ورائحة جسدها متعرقة ودبقة ووجهها الباكي حيّرني وأثار بي الألم وجعل نبضي يتسارع وروحي عكرة جداً.
نظرت لي بعينين منكسرتين متوسلتين ووجهها ذابل يئن كأنما تعاني من عسر ولادة مزمنة. وكنت في سباق مع دبيب حبّة الساماگرا العراقية المضلّعة الزرقاء.
- لا أريد سكس .. كرهته وكرهت نفسي.
- طوّلي بالك حبيبتي.
- تقرصني الشظية .. تدخلني متى تريد كأنها ليست أنتَ.. سأموت من الألم.
اقتربت منها وطوقتها بجسدٍ تنمّل قليلاً بالحبة العراقية المضلّعة كما لو احتسيت كأساً مضاعفاً من الخمر.
عانقتني كطفلة وهي تجهش : خذني.. اقتلني..
أخذتها وأنا ألهث خلال لحظات حتى أحسست باحتكاك الشظية وأنا أدخلها؛ كأن فماً لا حجم له يبتلع الشهوة. حتى هدأت كمطحنة كانت تدور على فراغ واستسلمت لغفوة مفاجئة وجسدها يزداد تعرقاً ورائحةً قهوة محمّصة تجتاحني.
داهمني صداع شديد ،
وشعرت أن مفاصلي تؤلمني أكثر من كل مرة.

اليوم السادس

يوليني الأستاذ رئيس القسم عناية شخصية بقضيتي وأعتقد أنه يراها مثل قضيته المعكوسة لكن من دون شظية حساسة تربك حياته.

اعترفت له بأن المنشطات الجنسية سببت صداعاً وصعوداً في الضغط وخفقاناً في القلب وأن مفاصلي ليست على ما يرام وعيوني تعبت.

قلت له بصراحة :

- كرهت الجنس .. كرهتُ جسد المرأة.

كان الرجل مهذباً :

- هذه زوجتك وعليك بالتضحية حتى آخر لحظة.

- مستعد لهذا حتى آخر لحظة.. لكن كرهت الجنس لدرجة أنني أخذت أكره بها حتى النساء !

يربت على كتفي بأبوّة:

- رد فعل طبيعي .. لم يبق إلا وقت قصير وتنتهي المشكلة بإذن الله تعالى.

كان رجلاً مهذباً وكنت ألتجئ إليه كلما يحاصرني الألم وتقل حيلتي وتنغلق أبواب النجاة أمامي.

دخلت موظفة التدقيق ساجدة الى غرفتي فلم أرها.

اليوم السابع

في عيادة الجرّاح أنمار كنتُ أكثر قلقاً من نور وأنا أحمل عنها نسخ الأشعة الكثيرة والتحليلات المختلفة ووصفات الأدوية القديمة. مثلما أحمل حالتها الشخصية المريضة في قلبي وعلى أكتافي المتعبة.

لم يكن الطبيب كبير السن كما تصورته بسبب شهرته الفائقة كجرّاح، بل كان ذا أناقة واضحة بشعر مصفوف ووجهٍ أبيض محمر قليلاً وخدين ورديتين وعينين هادئتين وأظن أن عمره في الخمسينيات.

نشر رقاقات الأشعة أمامه وتفحّصها ملياً وكنت أرى النقطة السوداء تتحرك وتغير مكانها في الموضع ذاته بين نسخة شعاعية وأخرى.

قرأ التحليلات الأخيرة واطّلع على الوصفات الطبية بانتباه ، بينما ظلت نور هادئة وصامتة تباعِد ساقيها قليلاً وتطقطق بأصابع يديها بلا انتباه ، ولا شك أنها كانت قلقة ومحرجة كثيراً.

هزّ الدكتور أنمار رأسه وسألني :

- هذه الحالة تفاقمت بعد الإصابة كما يبدو ؟

- نعم.

ثم حاولت أن أشرح له :

- أول الأمـر كانـت الأمـور طبيعيـة وانتزعـوا شـظايا كثـيرة مـن جسـدها.

توقفـت عـن الـكلام عندمـا كان الطبيـب يعيـد نـشر إحـدى رقاقـات الأشـعة فبقيـت أنظـر معـه الى نقطـة سـوداء وحيـدة بـين بيـاض حليبـي سـاطع.

- نعم.

أكملتُ :

- بعـد شـهرين مـن الإصابـة بـدأت الحالـة تنتابهـا .. بـدأت بحكّـة بسـيطة ثـم بحكّـة أقـوى ثـم هيـاج كبـير.

سأل زوجتي الجامدة في مكانها:

- أما تزال الحكّة قوية ..؟

هـزّت رأسـها مـن دون أن تنطـق وكان وجههـا الذابـل يـزداد خجـلاً.

سحبتُ نَفساً بعد إن كنت مختنقاً :

- لكن..

عدت أختنق من جديد وعيناي ثابتتان على فم الطبيب :

- الشظية في مكان حساس جداً كما ترى.

نـشر شريحـة الأشـعة مـن جديـد فالتقطـتُ النقطـة السـوداء البـارزة في محيطهـا الحليبـي :

- سيدتي هل أنت مستعدة لتوضيح الأمر لي بشكل طبيعي؟

وجّـه سـؤاله الى نـور التـي أخـذت تنظـر لي وعيناهـا تحثانـني عـلى أن أجيـب بـدلاً عنهـا لذلـك تدخلـت عـلى الفـور :

- دكتـور .. الـذي نعرفـه أن شـظية صغـيرة بقيـت في مكانهـا الحسـاس وعندمـا اسـتقرت هنـاك بـدأت..

سكتُّ لحظة أرتب أفكاري :

- .. بـدأت تحكهـا ..وكنـا نعتقـد أن الأمـر بسـيط .. لكـن الأمـر تطـور الى وخـز أحيانـا يكـون جارحـاً بخيـط دم رفيـع أو نقطـة دم تتفتـت عـلى الفـراش.

كان الدكتور أنمار منتبهاً لما أقوله :

- لكـن الأمـر اسـتقر منـذ بضعـة أشـهر الى أن هـذه الشـظية أخـذت تعمـل كـما لـو أنهـا عضـو ذكـري .. يعنـي تزيـد مـن شـهوة زوجتـي فتطلـب منـي ..

كانـت نـور تحنـي رأسـها كالمخذولـة كـما لـو تتلقـى إهانـات اضطراريـة منـي :

- .. كما ترى الأمر متعب ومستحيل لكلينا.

كان الدكتور أنمار صامتاً ينتظر ما عندي من معلومات :

- الشظية تؤلم منطقتها الحساسة وتهيّجها كل لحظة.

توقفت عن الكلام ولم أعد أعرف ماذا أقول فتدخل الدكتور أنمار:

- فهمت الأمر على أن الشظية المتبقية في البظر هي مَن تسبب الحكة الجنسية وتتحرك وتعمل على التهييج والإثارة..!

- نعم صح.

لا أعرف بماذا همهمت نور، لكنها كما يبدو شعرت بالاختناق من أجواء الأسئلة فنهضت مستأذنة بطريقة ربما تبدو غير لائقة لكنني استدركتُ :

- إنها متعبة ومريضة دكتور.. وخجولة أيضاً.

- لا بأس .. واضح أنها فقدت شيئاً من وزنها.

- دكتور .. كيف ترى الأمر إذن ؟

قال بعد إن استوعب الحالة الكلية كما يبدو :

- أنت تعرف أن البظر هو مركز الشهوة عند المرأة تماماً مثل قضيب الرجل.

ركزت كثيراً على كلامه وجسدي يرتعش قليلاً:

- البظر عضلة أسفنجية رخوة لكنها تنتصب بالمؤثرات الخارجية كاللمس واللعق، والشظية الصغيرة استقرت

في هـذا المـكان الحسـاس يبـدو لا تثبـت فيـه أيضـاً فتسـبب انتصـاب البظـر بشـكل مسـتمر لذلـك تغـيّر الشـظية موضعهـا نسـبياً وتتحـرك مهيّجَـة البظـر فتزيـد مـن حركتـه وتعمـل عـلى الإثـارة الدائمـة.

أكمل للتوضيح :

- مـع هـذا عـلى السـيدة زوجتـك أن تأخـذ أشـعة جديـدة لنتبـين حركـة الشـظية التـي تسـبب كل هـذا الهيـاج الاسـتثنائي.

بقيت منتبهاً :

- هـذا المـكان حسـاس جـداً.. وجراحيـاً سـيكون مـن العسـير تشريحـه وإخـراج الشـظية لأنـه قـد يتشـوه.

إزددت انتباهاً :

- حجمـه صغـير جـدا وأي تشريـح لـه سـيعمل عـلى تقليصـه أيضـا إضافـة الى تشـويهه واحتـمال أنـه سـيؤثر عـلى فعاليتـه مسـتقبلاً.

بقيـت صامتـاً أهـز رأسي وأنـا أتخيـل مـا يقولـه الدكتـور أنمـار كأنمـا شاشـة بيضـاء يعرضهـا أمامـي وأرى فيهـا كل شيء:

- بعـد تثبيـت الشـظية في آخـر مراحـل زحفهـا في المـكان لابـد مـن عمليـة صغـرى.

هززت رأسي :

- ربما تكون العملية أشبه بالختان .. قل هو ختان اضطراري..!

جفلت قليلاً ولكنني ما زلت مستمعاً جيداً:

- الجراحة تقتضي قص البظر بعملية ختان بسيطة حتى نتخلص من الشظية لتجنب تداعيات مستقبلية أنتم في غنىً عنها.

كان يلمح قلقي واضطرابي لذلك سارع :

- سأكتب للسيدة طلباً بتصوير شعاعي جديد وبضوئه نحدد الحالة المرضية الأخيرة.

انكبّ على ورقة يكتب وبقيت صامتاً بذهول.

ما بعد اليوم السابع - اليوم الأول

امتثلتْ نور للتصوير الشعاعي بعد يومين وعلى مضض.

شرحت لي فيما بعد بضجرٍ كبير من أنّ حالتها أصبحت تشبه حالة المرأة المنفلتة.

لم أخبرها عن تصورات الطبيب الجراح. إذ سيكون من المرعب لها أن تعرف أنّ الحلّ هو الختان للقضاء على الشظية المهيّجة ومن المؤلم أنها ستفقد أنوثتها في أربعينية حياتها.

كنت حزيناً ومريضاً لأجلها.

ضغطي لا يستقر ومفاصلي تؤلمني ونبضي عنيف ورعشة في جسدي أحاول أن أسيطر عليها ونور أكثر مرضاً مني وأكثر يأساً مما هي فيه الآن.

بقيتُ ليلتي أضاجعها مثل الكلب بعد إنْ التهمتُ حبتي ساماكرا من عيار 50 ملغم ، وهي تصرخ وتبكي وتئن، ثم تخفت كمدفأة انقطعت عنها النار، لكنها تعاود الرغبة بعد أقل من ساعة ويدها تعصر المكان بقوة كما لو أنها تريد أن انتزاع أحشائها من تحتها.

ضاجعتها هذه الليلة أكثر من مرة كأنني أودع جسدها للمرات الأخيرة وكان خفقان قلبي قوياً وسريعاً وصداع رأسي ليس على طبيعته.

تلوّت نور وهي تبكي.

سـالت دموعهـا غزيـرة فضممتهـا وأنـا أبـكي معهـا وقلبـي يخفـق عـلى غـير عادتـه.

ما بعد اليوم السابع - اليوم الثاني

عـرض الدكتـور أنمـار الشريحـة الشـعاعية الرقيقـة أمامـه فبانـت النقطـة السـوداء مثـل حيمـن صغـير يتحـرك في فضائـه الحليبـي، وأمكننـي رؤيـة تغيـير مكانـه عـن الأشـعة السـابقة تحـت السـطوع الـذي يكشـف رقاقـة الشريحـة.

- واضـح أن الشـظية غـير مسـتقرة في المـكان فتسـبب الحكّـة والتهييـج.

التفت لي الدكتور أنمار :

- الختـان هـو الحـل الأخـير لمثـل هكـذا حـالات.. والأمـر طبيعي بعمليـة صغرى بسـيطة.

بقيت أنظر إليه مشدوهاً ولم أقل شيئاً.

كانت عيناي تنظران إليه وبقي لساني معقوداً :

- المـكان حسـاس كالقـشرة لا يحتمـل عمليـة فتحـه وخياطتـه لأنـه سيتشـوه ويفقـد فاعليتـه الجنسـية وسـينكمش أكـثر وربما سيسـبب مضاعفـات نفسـية وجراحيـة.

وأضاف :

- بظـر المـرأة حسـاس مثـل عضـو الرجـل وأيـة جراحـة صغـيرة تـؤدي الى احتماليـة شـلّه.

لم أتح للوقت أن يأخذ من خيالي كثيراً ولا بد من التضحية بعضو نور بدلاً من هذا الموت البطيء الذي استلب حياتنا الصغيرة وداهمها بطريقة عشوائية.

- بهدوء ناقش الأمر مع السيدة زوجتك.

قال الدكتور أنمار ثم أكمل ليطمئنني :

- عملية بسيطة .. أقل من ربع ساعة!

ما بعد اليوم السابع - اليوم الثالث

بوتيرة متصاعدة كانت زوجتي تفقد الكثير من هدوئها وازدادت عصبيتها بشكل لافت حتى أنّ لبنى ظلت تتحاشاها فتهرب مع الصغيرة ميس الى غرفتها.

- أتمنى أن أموت.

كانت تجهش وقد تغيرت سحنتها كثيراً وبدت مسكينة استدرّت عطفي وأثارت بي الكثير من المواجع.

- وصلنا الى المرحلة الأخيرة .. افهميني فقط.

ضغطت على يدي بعصبية بالغة :

- عملية صغرى .. وينتهي كل شيء.

كانت عيناها محمرّتين وذابلتين :

- طمأنني الدكتور أنمار بأن العملية سهلة وسريعة وغير مكلفة.

كانت آلامها واضحة ومعاناتها تشتد ولا يبدو أنها منتبهة الى كلامي وتركيزي على ضرورة إجراء العملية.

أخبرتها وأنا أمسك وجهها بين يدين عصبيتين بأن العملية الجراحية ستُجرى بعد يومين.

قلت لها بألم وأنا أغالب دمعاً :

- العملية ستعني ختانك .. وفي الختان تنتهي الآلام .

كانت عينا الديك فيها خافتتين وتفيضان بالدمع.

ضممتها الى صدري بحب وأنا أهمس بصوت كان عليها أن تسمعه بوضوح:

- هذه هي الحرب حبيبتي نور.. تقصُّ فينا أعز ما نملك .. فاستعدي لختانك.

25 - 9 - 2017

بغداد

خريطة انفجار آخر سيارة مفخخة في بغداد

(الفصل الأول)
1 - عاريان كتمثالين
2 - الحكّة
3 - خيط دم باهت
4 - زوجتي شظية جارحة
5 - يشرق الفجر في وجهها

(الفصل الثاني)
1 - فضيحة الشظية
2 - الموظفة الثلاثينية
3 - أرق من قشرة البصل
4 - الساعة الجنسية
5 - ساجدة
6 - أنا خائفة
7 - زوجة ستينية
8 - جنس الظهيرة
9 - أنتَ تؤذيني بغيابك
10 - الكلاب أرواح
11 - عطر التفاح أو الديتول
12 - دورة شبقية
13 -أنظر الى الجميع ولا أرى شيئاً
14 - أسئلة الجنس المعقدة

15 - فتاة لا تنام
16 - تحليل هورموني جديد
17 - عينان صغيرتان تتحدثان
18 - أحكام العمر الستيني
19 - بوس الواوا
20 - يا عيني على بغداد
21 - شذوذ الجسم الغريب
22 - آخر مفخخة في بغداد
23 - زوجتي وزوجتك
24 - أنا الكلب
25 - أشباح مع نور
26 - قد تنتحر نور
27 - في ردهة الطوارئ
28 - اليوم الأول
29 - اليوم الثاني
30 - اليوم الثالث
31 - اليوم الرابع
32 - اليوم الخامس
33 - اليوم السادس
34 - اليوم السابع
35 - ما بعد اليوم السابع - اليوم الأول
36 - ما بعد اليوم السابع - اليوم الثاني
37 - ما بعد اليوم السابع - اليوم الثالث

صدر للمؤلف :

الروايات:

1 -«امرأة بنقطة واحدة» - دار نينوى - دمشق - 2018
2 -«جمهورية مريم» - منشورات المتوسط - ايطاليا - 2018
3 - «الحلوة» - دار نينوى - دمشق - 2017
دار سطور - بغداد - 2017
4 - «عذراء سنجار» - دار ضفاف - بيروت – 2016
دار شنكال – دهوك –طبعة ثانية – 2016
مؤسسة ثائر العصامي – طبعة ثالثة 2018-
5 - «تجميع الأسد» – الدار العربية للعلوم - ناشرون – ثقافة- بيروت – 2014
مؤسسة ثائر العصامي – طبعة ثانية – 2018
6 - «عجائب بغداد» –الدار العربية للعلوم - ناشرون- ثقافة - بيروت – 2012
مؤسسة ثائر العصامي – طبعة ثانية - 2018
7 - «شبيه الخنزير»- الحضارة العربية - القاهرة - -2004 الطبعة الأولى
فضاءات - عمان- -2009 الطبعة الثانية
سطور - بغداد - 2015 - الطبعة الثالثة
8 - «مولد غراب» – الحضارة العربية – القاهرة – -2004 الطبعة الأولى
ط2 ط3 بغداد
سطور - بغداد – -2017 الطبعة الرابعة
9 - «طيور الغاق» دار الشؤون الثقافية – بغداد – 2000